أحمد زياد محبك

أبو معتز والكناريات

مجموعة قصصية

٢٠١٤

منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق

الحقوق محفوظة

لاتحاد الكتاب العرب

إليـــكِ ...

أرى جـذوركِ تمتـد صـابرة فـي الأرض بهـدوء وقـوة وإيمان، تتحدَّيْنَ كلَّ ما فيها من صخور وطفيليات، تأخذين من التربة خير ما فيها، تترفّعين عن الدنايا كلها، تحوِّلين ما تقدرين على تحويله إلى نسغ يصنع الحياة، ترتفعين بجذعك القوي المتين الصامد الثابت الشريف إلى أعلى، تتحدَّيْنَ كلَّ قُوى الشدّ إلى أسفل، تمدّين أغصانك الطاهرة النقية وفروعك في الجهات كلها، تسبحين في النور والهواء حرة كريمة أبية، ترتفعين مقدسة نحو السماء، تستمدين من الشمس والنجوم والكواكب النور، تتنسّمين الهواء، وتزدهي أوراقك الخُضْر، تجدّدينها بهدوء وصمت، لا تَعْرَيْن، لا أحد يرى أوراقك إلا خُضراً زاهية، لا تشكين من قرٍّ ولا حرٍّ، تُزهرين، تُثمرين خير الثمر، ومن زيته دهن ونور وغذاء وشفاء، لي وللأبناء والأحفاد، وأنا أراك صبية أبداً لا تشيخين.

إليك أيتها الشجرة المباركة المقدّسة، يا من أستند إلى جذعك أتفيأ ظلّك أنام في خيمتِك أعمل في أرضك أستروح نسائمك أغتذي من ثمرك، معك أحيا بك أحسّ العالم رحباً مثمراً أخضر، أراك تفرحين بأحفادك يلعبون في امتداد أغصانك والفروع، يا من وهبتِهم أنتِ الحياة، يامن وهبتني أنا الحياة، أيتها الشجرة المباركة المقدسة الحنون.

إليك آخر مجموعة في حياتي، ولم يبق لي من حياتي إلا قليل، إليك أيتها الزوجة الغالية العالية ... ياغالية.

أبو معتز ...والكناريات

تساعده زوجته على خلع معطفه المبلَّل، يلقي بنفسه في مقعد عريض، وهو يقول:"راحت كلها"، وتسأل بسرور، وهي تكاد تصفِّق بيديها:"بعتَها كلَّها؟"، يغضب، يضرب كفاً بكف، وهو يصيح:"أقول لك راحت، راحت، راحت"، تسأل بانفعال:"طارت؟ كلها طارت؟"، يصمت، تتغير لهجته، يبتلع غصة، ينهض، يوليها ظهره، يهمس:"ماتت"، ثم يلتفت إليها، يضحك، كأنه يبكي، يتكلم والغصة تملأ حلقه:"لم ينج أحد، هذا طوفان نوح"، تدق على صدرها بيدها، تعلّق:"لا أصدق؟"، يمضي إلى الغرفة الصغيرة، الغرفة الشرقية، غرفته الخاصة، يتأمل المسامير المثبتة على الجدار المقابل لمكتبته. هذه هي غرفة التعذيب، غرفة الزنازين، هنا حبستها، حرمتها الأفق والسماء والهواء، ثم بعتها بثمن بخس، وهذه المسامير أدوات التعذيب، ومثلها في الجدار المقابل الكتب والمكتبة والحاسوب، ما عدت أطيق الجلوس فيها، كرهتها، كرهت حياتي.

تدخل في إثره، يلتفت إليها، يقول لائماً وهو يشير إليها بسبابته:"أنا أعرف، هذه أمنيتك، أنت أردت التخلُّص منها، تحققَتْ أمنيتُك"، يوليها ظهره، يدق على الجدار، وهو يقول:" ليتها ماتت هنا أمامي في

أقفاصها المعلَّقة على هذه المسامير"، تردُّ بهدوء:"هذه مشيئة الله، لاتتهمْنِي"، تصمت، ثم تضيف: "لا تنس، أنت توقعت هذا، أنت نفسك قلت ذات يوم....." يلتفت، يضع يده بلطف على كتفها، يقاطعها، وهو يكاد يبكي:"نعم، يا أم معتز، نعم، هي مشيئة الله، ولكن، لا أعرف ماذا أقول؟! سامحيني، أنا في حالة لا أعرف كيف أصفها"، ويهمس بنبرة هادئة:"ولا أعرف بعد ذلك ماذا سيكون مصير هذه الكتب؟! هل ستطير أوراقها في الهواء؟ هل تحترق؟ هل تغرق في الطين؟"، تعلق:"لا تتشاءم يا أبو معتز"، يهز رأسه، في صمت، تسأله:"وشريكك أبو ناصر؟"، يرد:"مصيبته مثل مصيبتي، سأحكي لك بالتفصيل".

*

لم يكن يتوقع ذلك، فجأة، فتح عينيه فوجد عنده أكثر من خمسين قفصاً، في كل قفص زوجان من الكناري الأصفر كالشمس، الأمر في الحقيقة متوقع، وكان يسعى إليه، ويعمل من أجله، ولكن المرء دائماً يشعر بالمفاجأة، لا يصدق عندما يرى نتيجة عمله، أياً كانت هذه النتيجة، ولعل هذه من بعض متع الحياة. طوال ثلاث سنوات، وهو يراقب تلك الكائنات الذهبية الجميلة، ويستيقظ على تغريدها الجميل، ويمضي ساعات وساعات، وهو يغسل الأقفاص، ويضع الطعام، وينظف أواني الشراب، وتكبر الفراخ، فيشتري لها أقفاصاً جديدة، كان ذلك بعد إحالته على التقاعد، قبل ثلاث سنوات، كان يهوى المطالعة، لا

يكاد الكتاب يغادر يده، لا لأنه مدرس لمادة اللغة العربية، فحسب، بل لأنها هوايته الحقيقية، والوحيدة، ولكن فجأة ترك المطالعة، تخلّى عنها، لا يعرف كيف خطرت على باله الفكرة، اشترى زوجين من الكناري الأصفر المتألق، وبدأ التكاثر، زوجين زوجين، لا أجمل من الكناري الذكر وهو يزق أنثاه، ويشاركها في صنع العش، وترتيبه، ثم يقف إلى جوارها وهي راقدة على البيض، يرقبها، يحرسها، يؤانسها، بل يزقها الطعام بمنقاره، وإذا ما نهضت عن البيض لتستريح، تولى هو الرقود فوق البيض بدلاً منها، وحين تزق الفراخ يساعدها أحياناً في زقها، ولكن بعض الذكور شرسة، تنبَّه مرة إلى أن أحد الذكور أخذ ينقر أنثاه في رأسها وهي راقدة فوق البيض، وعلى الفور عزله عنها ووضعه في قفص وحده، ذَكَرٌ آخر نقر فرخاً، هو فرخه، أي ولده، فور خروجه من البيضة، فأسرع أيضاً إلى عزله، لكلِّ ذَكَرٍ قصة، ولكل أنثى قصة، هي كائنات متشابهة، ولكنها مختلفة، مثلنا نحن البشر. عندما اشترى أول زوجين سمَّاهما، هذا سمير، وهذه سميرة، ثم سمى الفراخ الأربعة الأولى التي رزق بها، فرح بها، كأنها أولاده، انتظر حتى تبيَّن له الذكر من الأنثى، بعد أكثر من ثلاثة أشهر، بدأ يميزها من تغريدها، الذكر يغرِّد، الأنثى لا تغرد، بل ترسل صوتاً متقطعاً، عادياً، ثم سمَّاها: عدنان، مضر، تماضر، ربيعة، ولكن بعد ذلك أقلع عن التسمية، تكاثرت، حتى أصبحت فعلاً مثل قبيلتي مضر وربيعة، ما أخطأ

في التسمية، وأشد ما يكون حزنه حين يموت فرخ، المشكلة أن الفراخ وهي في العش تتدافع، بل تتصارع، تحطُّ الأم على العش لتزق فراخها الأربعة أو الثلاثة، فتسارع الفراخ إلى التدافع نحو الأم، تفتح مناقيرها على آخرها، الفرخ الكبير يدفع الفرخ الصغير، خلال يومين أو ثلاثة تجد أحد الفراخ قد نما وكبر، وترى فرخاً آخر ما يزال صغيراً، بل يضعف، لم يحظ إلا بالقليل من الطعام، وسرعان ما يدفع الفرخ الكبير أخاه الصغير الضعيف، ويرميه خارج العش، فيسقط ليموت، وكم من فرخ مات بدفع أخيه له، وكم من مرة مد يده إلى القفص وحمل الفرخ الصغير، وأعاده إلى العش، ولكن الأم تأبى بعد ذلك أن تزقه، تهمله، لا يعرف، هل تهمله لأنه مسَّه بيده وحمله؟ هل تهمله لأنها أدركت ضعف الفرخ وعرفت أنه لا يجدر به العيش؟ هل الحياة للأقوى؟ لا يعرف السر، ويبادر عندئذ إلى رفع جثة الفرخ الميت من القفص ورميه بعيداً، حتى لا يصيب الفراخ بأي عدوى، وكم يشتد حزنه عندما تموت الأنثى، فهي الأم، هي المنجبة، وإن كانت لا تغرد، الإناث تموت قبل الذكور، الإناث يرهقها وضع البيض والرقود عليه وزق الفراخ. الأمر لم يتوقف عند الفراخ والذكور والإناث، فأمر هذه يهون، المشكلة عند زوجته، اعترضت في البداية على وجود قفص الكناري في البيت، بل رفضت وجوده، وقالت له: "سيحمل الكناري لنا الأمراض"، وهدَّدتْه بأنها لن تهتم بالقفص، ولن تساعده على تنظيفه،

ولن تسمح له بإدخاله إلى غرفة الجلوس أو النوم، أجابها:"عندنا خمس غرف، سأخصص له الغرفة الصغيرة، الغرفة الشرقية، المغلقة التي لا نافذة لها، غرفتي الخاصة، سأعلقها على الجدار المقابل لمكتبتي"، اعترضت أيضاً، وأكدت له أنها ستربي في البيت قطاً أبيض، هي تحب القطط، وستطلقه في البيت حتى لا يترك له أي كناري، أجابها بحدة وانفعال:" من قبل اعترضت على الكتب والمكتبة، من المؤسف، وأنت الزوجة المثقفة، خريجة قسم اللغة الإنكليزية"، وصمت، أرسل زفرة طويلة، ثم أضاف:" واشترطت أنت عليَّ أن تكون المكتبة في هذه الغرفة الصغيرة المغلقة، وتركنا الغرفة الكبيرة الواسعة المطلة على الجهة الغربية وبشرفتها الواسعة، تركناها للضيوف، وهي مطلة على أجمل جهة، وهي الجهة الغربية، كان هذا قرارك، وعشت العمر كله في هذه الغرفة، الصغيرة، الضيقة، المغلقة، لا نافذة لها ولا شرفة، حتى لو كان لها، فهي تطل على الشرق، أسوأ جهة، تلفعها ريح الشتاء الباردة، وتحرقها فور الشروق شمس الصيف الحارقة"، ويسكت، يطول صمته، يروح ويجيء في الغرفة، يتكلم:"كبرنا، وتقدم بنا العمر، بل راح العمر، ما عاد من اللائق العودة إلى الخلاف والخصام"، وعاد إلى الصمت، ثم أخذ يتكلم: "سأخبرك بسرٍّ، الكناري الواحد يباع بأربعة آلاف ليرة، كل ثلاثة أشهر تضع الأنثى أربع بيضات، أي ستة عشر ألف ليرة"، وأخذ يداعب ذقنها بأصابعه، وهو يتابع

فيقول:"هي دعم لراتبي التقاعدي الذي ماعاد يكفينا في شيء، ما رأيك يا أم معتز؟"، صمتت، ثم أضافت:"ليكن في علمك، لن أدخل إلى الغرفة، ولن أنظفها، تتولى أنت كل شيء بنفسك"، ووعدها بذلك. هذا متوقع منها، وهي التي من قبل ما عنيت بالكتب ولا المكتبة، وتركت الغبار يعلوها، كنتَ تنظفها بنفسك، وتزيل عنها الغبار. ولكن دخل ذات يوم، فوجدها في غرفة الكناريات، تكنس الأرض، دهش، غمره الفرح، سألها: "ما هذا يا أم معتز؟ أنت في غرفة الكناريات، أنت أقسمت ألا تدخليها"، ترفع رأسها وهي ما تزال تكنس الأرض لتقول:"لا، لم أقسم، وأنا أشفقت عليك، لا يعقل أن أراك وأنت تكنس الأرض؟!"، يعلق:"أشفقت عليَّ أم على الكناريات؟". ما إن رأت الأنثى تقعد في العش، ترقد فوق البيض، حتى تغيرت مشاعرها، تحرَّك شيء ما في أعماقها، وعندما رأت الفراخ وهي تخرج من البيض، ورأت الأنثى وهي تزق الفراخ تغير موقفها كلياً، وأخذت تقعد كل يوم مع زوجها ساعات ترقبها، تستمتع برؤية الأنثى وهي تزق الفراخ، ترى الذكر وهو يزق أنثاه، تدهش، تشعر بشيء من الخجل، تذكر الله، تسبِّحه، تقول لزوجها :"ماهذا الحنان، يا أبو معتز، ما هذه المودّة، سبحان الله"، ثم تغمغم:"ليت كل الرجال مثل هذا الكناري"، يسعل، يغمغم، يعلِّق: "وليت النساء، يا أم معتز، كل النساء، تتعلم من هذه الأنثى"، ولكن ما تلبث أن تسأل:" ومتى سنبيع هذه الفراخ؟" يقول:"سننتظر الفراخ حتى

تكبر، وتتعلم التغريد من أبويها"، وتسأله بعد بضعة أشهر، فيقول لها:"نحن الآن في الصيف، الناس لا يشترون الكناري، أسعاره تنخفض، لأنهم يذهبون في إجازة، سننتظر"، وفي الشتاء يتعلَّل بالبرد، وفي الربيع يقول لها هذا موسم التكاثر، ثم يقول لها: "سنترك الفراخ كي تتكاثر، هذا خير من بيعها"، وذات يوم قال لها: "هذه الفراخ أحفادنا، هل نبيع الأحفاد؟"، وصمت، ثم أضاف:"لا تستعجلي، سنبيعها كلها ذات يوم، أو ربما يلحق بها وباء، تحل بها صاعقة، أو يصيبها زلزال، فتموت كلها دفعة واحدة، ونموت نحن معها"، ترد عليه:"لا سمح الله، لا تتشاءم يارجل، أعرفك تحب الحياة"، ويعلق:"كل شيء متوقع، ما يولد يموت، الدنيا حافلة بالمفاجآت، قد يقتحم الشقة في غيابنا أحد هواة الكناري، فيسرقها، أو قد يصطادها من النافذة المقابلة قناص، يهوى الصيد، أو قد تسقط فوق غرفتها قنبلة، لا تنسي، نحن نسكن في الدور الأخير"، تضحك، تعلِّق:"ماهذا الخيال يا أبو معتز؟ هل يوجد لص مختص بالكناريات؟ وبعد ذلك، نحن نسكن هنا منذ عشرين سنة، وما سمعنا عن لص يقتحم شقة في الحي كله"، وذات يوم قالت له:" اليوم رأيت العجب"، سألها:"وماذا رأيت؟"، يحمرُّ وجهها، تضع يدها على فمها، تضحك، تخفي وجهها بيديها، تتكلم: "لا أعرف ماذا أقول لك؟"، يرد: "قولي؟"، تتكلم بهدوء، وهي تغطِّي وجهها بيديها:"رأيت الذكر وهو يغرِّد ويغرِّد ويغرِّد بشكل متواصل، ويطارد الأنثى داخل

القفص، ثم ...ثم يحط على ظهرها، لا أعرف ماذا أقول؟"، ويضحك الزوج، ويتكلم:"هذا اسمه باللغة العربية السِّفاد، وهو مشتق من السفُّود، أي السيخ، والطيور كلها مشهورة بكثرة السِّفاد، ما اسمه باللغة الإنكليزيّة؟"، تصمت، لا تجيب، يعلِّق:" أنت جدة، ويعلوك الخجل؟، هذه هي سنة الكون، يا أم معتز، قال تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها﴾، وقال عزَّ وجل: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾، وذلك للتكاثر، ثم للموت، هذه هي سنة الحياة، وتفرَّد المولى تعالى بأنه فرد صمد، ليس له صاحبة ولا ولد، وتفرّد بالبقاء". وهكذا لم يمض بضعة أشهر حتى أخذت تشاركه في حب الكناريات، وبدأت تساعده في تنظيف الأقفاص، ووضع الطعام، وغسل أواني الماء، وكثيراً ما تدخل في غيابه إلى غرفة الكناريات، تقعد أمامها، تتأملها، ما عادت تستطيع كتمان إعجابها بتغريد الكناريات، وكثيراً ما كانت تدعو جاراتها في الصباح لاحتساء القهوة في غرفة الكناريات الصغيرة المغلقة، لا في غرفة الضيوف ولا في غرفة الجلوس، من أجل الاستماع إلى تغريد الكناريات، وذات يوم قالت له:" أريد قفصاً خاصاً بي، تضع فيه أجمل كناري عندك، وسأضعه في غرفة النوم، لنستيقظ معاً على تغريده في الصباح الباكر"، أجابها وهو يضحك: "سأهديك زوجين"، ترد:"لا، لا أريد الزوجين، أريد الذكر وحده، كي أسمعه وهو يغرد، ينادي أنثاه، إذا وضعنا معه أنثاه فلن يغرد"، يعلِّق: "ولكن بشرط، يا أم معتز؟"،

وسألت:"ما هو؟"، أجابها:"لا تهددي بشراء قط أبيض؟"، ردت:"لا أبيض ولا أسود". وأكثر ما كان يسره زيارة أحفاده، كان يسعد بزيارتهم، ويدخل بهم إلى غرفة الكناريات، فقد أصبح منذ اليوم اسمها غرفة الكناريات، ويدخل بهم إلى الغرفة، ليتفرجوا على الكناريات، ولكن سرعان ما يخرج بهم، حتى لا يضايق أحفادُه القدامى الأحفادَ الجدد، فالكناريات بالنسبة إليه أحفاده الجدد. وذات صباح، وهو وزوجته في غرفة الكناريات يحتسيان القهوة معاً، قال لها:"أصبح عندنا، يا أم معتز، أكثر من مئة كناري"، أبدت السرور، قالت:"أصبح عندنا، إذن، أربعمئة ألف ليرة، هذه ثروة، لماذا لا تبيعها كلها؟"، ضحك، أجابها:"فكرت منذ فترة قريبة ببيعها، ولكن إذا أردت بيعها كلها فلن يشتريها إلا تاجر، وسيشتري الكناري الواحد بألف ليرة، لا أكثر، لا بد من أن أصارحك"، وصمت برهة، ثم قال:" أحد أصدقائي نصح لي ببيعها، أو إهدائها، قال لي صديقي: لماذا تستأثر لنفسك بالاستمتاع بجمال شكلها وصوتها؟!، لماذا لا تهدي الناس بعض هذه الكائنات الجميلة، ليتفكر الناس في خلق الله وبديع صنعه، بع منها وقدم للناس منها هدايا"، وصمت ثم أضاف: "يؤلمني أنه لا أحد من أولادي الثلاثة أو بناتي الأربع طلب مني أن أهديه أي قفص، أقول لابنتي هناء: انظري إلى هذا الكناري ما أجمله؟ لاحظي رقته ولطفه، كم هو ناعم ورقيق، انظري إلى هذا اللون الذهبي الأصفر، كأنه الشمس، ولاحظي نعومة رأسه، ورشاقة التفاتته،

استمعي إلى تغريده، عنده ثلاثة عشر لحناً، تغريده يتصل حتى يبلغ ثلاثين ثانية، بل قد يبلغ الأربعين، يبدأ بشقشقة هادئة، ثم تعلو، ثم تمتد، ثم يبدأ بالتقطيع، ثم يرسل الصوت ممتداً، ثم يرجِّعه في صدره ترجيعاً، ثم يقطعه تقطيعات طويلة، ثم قصيرة"، وأصمت، ثم أقول لها:"ما رأيك بهذا الذكر الجميل، يا هناء، ضعيه في غرفة النوم، لتستيقظي على صوته"، وتعلق مازحة:"لا، لا، أرجوك يا أبي، لا أستطيع إدخال أي ذكر إلى غرفة نومي، زوجي شديد الغيرة"، وأضيف:"إذن، سأعطيك هذه الأنثى، انظري إلى قوامها الممشوق، وعنقها الجميل، كم هي ناعمة، لاحظي كيف تتعلق بالقضبان، ثم تنزلق عليها برشاقة، ما رأيك لو وضعتها عندك في المطبخ لتتسلَّيْ معها؟"، تضحك، وتعلق:"سأغار منها على زوجي"، وأقول لها:"إذن، سأهديك هذا القفص، فيه ذكر وأنثى لتري الفراخ"، وترد:"لا، أرجوك، يكفيني فراخي، عندي ثلاثة أولاد، لا أجد الوقت لتربيتهم"، وتصمت ثم تضيف:"اترك هذين الزوجين عندك في هذا القفص، بين سائر الأقفاص، تحت رعايتك، وأنا سآتي كل أسبوع لأطمئن عليهم"، ويصمت، يرسل زفرة، وهو يحتسي القهوة، ثم يقول:" ولذلك ما عدت أعرض على أحد من الأولاد أو البنات مثل هذا العرض"، وتعلق زوجته قائلة:" كان الله في عون الأبناء والبنات، كلهم في أعمالهم، أنت يا أبو معتز متقاعد، وليس عندك عمل، الكناريات بحاجة إلى رعاية"، يرد بهدوء:" أنا أعرف، لا أحد يحب الجمال،

الكل يريد المنفعة والفائدة، قال لي مرة صديق:" اذبح الكناريات واستمتع بأكلها، ماذا تستفيد من تربيتها". قلت له:" لو أنك تستمع إلى تغريدها"، أجابني:" عندي التلفزيون، يكفيني"، مرة زارني ابن خالتي قاسم، وقال لي: "هات، أعطني هذه العصافير حتى أفصل رأسها كلها عن جسدها وأشويها وآكلها"، قلت له:"أعرفك، منذ صغرك وأنت تفعل هذا، ولكن هذه كناريات، ماهي عصافير الدوري"، ويعلق:"دوري أو كناري، كلها مثل بعضها، هي عصافير"، ويصمت، يحتسي آخر ما تبقى في الفنجان، ينهض، ينقر بإصبعه على أحد الأقفاص، ثم يقول لزوجته:"أطلت في الحديث، أصبحت أثرثر، خرفت يا أم معتز، ولعلي بدأت أكرر قصة رويتها لك من قبل أكثر من مرة"، وتعلِّق زوجته:"ابنتك على حق، لا تستطيع تربية الكناريات، عندها أولادها ووظيفتها، ولكن صديقك ليس على حق، لا يجوز ذبحها وأكلها، هذه للتأمل والزينة"، وتصمت، ثم تضيف:"أنت أفضل من كثير من رجال هم في مثل عمرك، أنت بألف خير"، يضحك، يقول لها:"هيا لنخرج إلى الشرفة يا أم معتز، أصبح جلوسنا في غرفة الكناريات أكثر من جلوسنا في أي غرفة أخرى"، تنهض، تسير إلى جواره وهي تتكلم:"أخشى أن ننقل غداً سريرنا إلى غرفة الكناريات لننام عندها".

ثم جاء الحل، يبدو أنه شخصياً قد ملّ، سئم، الحقيقة الكناريات كثرت، وأصبح عنده أكثر من خمسين قفصاً، أكثر من مئة كناري، جاء الحل، صديق له

عرَّفه على صديق آخر، هذا الصديق، وهو أبو ناصر، عنده محل يبيع فيه أسماك الزينة، ثم اصطحبه إلى زيارته، حدثه عن الكناريات، فقال له على الفور: "أحضرها، سأعرضها إلى جانب الأسماك، كثير من أصحاب الفن والذوق يرتادون محلي، يشترون أسماك الزينة، ويسألون عن الكناريات، أنا هنا عندي تسجيلات نادرة لأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وصباح فخري، كما قلت لك أصحاب الفن والذوق يرتادون محلي ليستمعوا إلى هذه التسجيلات، يسرني وجود الكناريات عندي، هاتها كلها، ولو كانت خمسمئة". ويحمل الأقفاص كلها إليه، ما الذي انتابه لا يعرف، كأنه كان يرغب في التخلص منها كلها دفعة واحدة، حملها إليه، ولم يحدد له السعر ولا الثمن ولا نسبة الأرباح، قال له: "بعها"، ثم أدار إليها ظهره وخرج، حتى إنه لم يلق عليها نظرة وداع، كأنه ما كان يريد توديعها.

يزوره ابن عمه أبو رجب، فيقول له إنه يحب الكناريات، ويشتهي الاستيقاظ على سماع صوتها، ويثني عليها، فيقول إن ثمن الذكر أربعة آلاف، والأنثى ثمنها ألف وخمسمئة، فيعرب على الفور عن إحساسه بغلاء الثمن، ويقول له:"خسارة فيها ثمنها"، ولدى خروجه يحمل قفصاً فيه كناري ذكر يغرد يقدمه هدية له، فيقبله، ويزوره صديقه أبو سليم فيقول:"تربية هذه الكناريات في القفص هو نوع من السجن لها"، ويقترح عليه إطلاقها، ومنحها الحرية"، ويصمت، لا يجد جواباً، ويضيف أبو سليم

قائلاً:"أنت مدرس لمادة اللغة العربية، ولاشك كنت تدرس طلابك معنى الحرية، ولا بد أنك درستهم أكثر من قصيدة عن تغنّي الشعراء بالحرية وكانوا يتخذون من البلبل في القفص رمزاً للسجن، هل تذكر قصيدة بلبل في قفص، نظمها الشاعر عمر أبوريشة، هل تذكر كيف صوَّر فيها بلبلاً لم ينجب في القفص، لأنه لم يرد أن يورث الفراخ ذل القيد من بعده، بل آثر الموت انتحاراً"، يحس بالقلق، يضطرب، هي حقيقة سجينة، ما كان أحراها أن تحلق في الفضاء الواسع، وأن تلتقط طعامها، وتعيش بحرية، ولكنه يوفر لها الطعام بأنواعه، الدخن والبيض المسلوق وأوراق الخس والجرجير، كيف يمكنها توفير مثل هذا الطعام في المدينة؟ لاشك أنها ستسقط بين مخالب قطة. ويظل طوال الليل أرقاً يفكر في كلام صديقه، هل يفتح لها الأبواب عند الفجر لتطير في السماء؟. ولكن، الحقيقة، هي، وهي القفص، أكثر حرية مني، وأنا خارجه، ما معنى الحرية؟ أنا هنا في المدينة داخل أقفاص مبنية من غير قضبان تراها العين، أنا أدفع للماء والكهرباء والهاتف والشبكة، وأخشى أن تقطع عني هذه الخدمات، حتى زوجتي أخشى ذات يوم أن تقطع عني عطفها، هي الأخرى قفص أنا أسير بين قضبانه، قفص محكم الإغلاق، بل قل زنزانة، ولكن هل الإنسان العزب الذي يعيش وحده في الصحراء من غير ماء ولا كهرباء ولا شرطة مرور ولا هاتف ولا كناريات أكثر حرية مني؟ ما عدت أعرف. ويزوره صديقه أبو خالد، فيسأله عن

الكناريات، عن عمرها وعن أنواعها، ومن أي البلاد جاءت، يحار في أمره، لا يجد جواباً، يقول له:" أنا فقط أستمتع بمشاهدتها، ولا أعرف شيئاً عنها"، يشعر بالحرج، فور مغادرة الصديق يسرع إلى الشبكة العالمية، يبحث فيها عن الكناري، أنواعه، تاريخه، حياته، يقرأ فيه بعض المعلومات:" الموطن الأصلي للكناري هو جزر الكناريا في المحيط الأطلسي إلى الغرب من مراكش، ومن اسم الجزر جاء اسمها، وهي على أنواع كثيرة، وتم تهجينها مع أنواع أخرى، وتعمر عشر سنوات، أو أكثر، وتعيش في المنازل، وتحتاج إلى رعاية وهدوء". ويقرأ معلومات أخرى كثيرة، يقرّ بأهميتها، هي جيدة، ومفيدة، ولكن الأجمل قعوده أمامها، يتأملها، يضع في كل قفص حوضاً صغيراً متطاولاً، يشبه علبة السردين، يضع فيه الماء البارد، وسرعان ما ينزل إليه الكناري، يغط فيه منقاره، ويرف بأجنحته، ثم يقعد في الحوض، ويرف بأجنحته، يرعش جسمه كله، ويتطاير الماء من حوله رذاذاً، ويقفز إلى العود المثبت في القفص، ينفض ريشه، ينظف بمنقاره ريش الجناح، ثم يعود إلى الحوض، يحط على جانبه، ينزل فيه بكامل جسمه، يرف بجناحيه، ويتطاير الماء، ويقفز إلى العود المعلق في القفص، ما أجمل مشاهدة الكناري وهو يستحم، حركات رشيقة أنيقة جميلة، مرة زاره صديقه أبو عادل، دعاه إلى غرفة الكناريات، وكانت كلها تستحم، في إيقاع جميل، طائر يحط، وطائر ينط، قال له:" أمر عجيب، يبلغ الفرخ من العمر

شهراً، أو أقل، وأضع له الحوض، فيسرع إلى النزول فيه، ويبادر إلى الاستحمام، وهو لم ير أمه تفعل ذلك ولا أباه، من الذي علمه هذا؟"، ويرد صديقه أبو عادل:"هذا أمر عادي، يا أبو معتز، حفظه عن جدوده، هو مسجل في الشريط الوراثي، هذا تصرف غريزي لا يحتاج إلى تعليم، وهو تصرف لم يتطور عبر ملايين السنين"، ويسأله:"هذا كله صحيح، ولكن من علمه هذا الفعل أول مرة؟"، ويرد:"الأمر ليس بحاجة إلى تفكير، في أجنحتها أبواغ صغيرة، تحكّها، تزعجها، فتتخلص منها بمنقارها، ونحن نراها تفعل ذلك، فنقول عنها: إنها تتفلّى، وحين رأت بركة ماء، نزلت فاستحمت، كي تتخلص من تلك الأبواغ، الأمر حاجة عضوية"، ويقول له أبو معتز بصبر وهدوء:"ويظل السؤال مطروحاً: من علَّمها كيف تتفلَّى أول مرة؟ من علمها كيف تنزل إلى الماء لتستحم؟"، ويجيبه أبو عادل:" الدماغ"، ويسأله:"ومن صنع الدماغ، من وضع فيه القدرة على هذا التفكير، هو لا شك تفكير أوَّلي وبسيط، ولكن من أعطاها القدرة على هذا التفكير؟"، ويرد أبو عادل:"هذا هو، يا أبو معتز، نظام الطبيعة، الخلايا تتشكل تلقائياً وفق حاجات البيئة"، ويقول له:"ومن الذي جعل الخلايا تتشكل وفق حاجات البيئة؟"، ويرد:"نظامها الداخلي"، ويبدأ الضجر يتسلل إلى نفسه، يسأله:"ومن صاغ هذا النظام الداخلي، من صنعه يا أبو عادل؟"، ويرد أبو عادل، فيقول:"تريدني أن أقول هو الله، لن أقول هذا"، ويضحك أبو معتز، يضحك،

يشعر بالارتياح، ثم يعلق:"ها أنتذا تقول ذلك، وتنكر أنك قلته، وتعرف أنه هو الله، ولكن تنكر معرفتك به، الله في داخلك ومعك ولكنك ....ماذا أقول؟ هداك الله، لن أجادلك، دعنا نتأمل خلق الله". الحقيقة الكناريات حيّرته، بل الناس هم الذين حيَّروه. لا يترك الناس لك حرية التفكير، ولا العيش، ولا الاختيار، مهما حاولت أن تكون لك حياتك الخاصة ما أمكنك ذلك، أبو سليم يحدثني عن حرية الكناريات، وهو نفسه يصادر حريتي، وأبو عادل يكاد يودي بي إلى الشك والجنون، ما يزال طفلاً في تفكيره، بل ما يزال بدائياً، وهو أستاذ الفلسفة، وابن عمي أبو رجب، أقول له ثمن الكناري أربعة آلاف، فيرتعش بل ينتفض جسده كله، وهو صاحب المعامل والملايين، وحين أقدِّم له القفص وفيه الكناري هدية، يفرح به، ويأخذه ويطير به، ولا يلتفت وراءه، أما ابن خالتي قاسم، فلا عتب عليه، لا يعرف سوى ملء بطنه بما يلذ أو حتى بما لا يلذ من طعام، المهم أن يملأ بطنه، وأم معتز، الزوجة المثقفة، لا تحب الكتاب ولا تحب الكناري، فور إحالتها على التقاعد، وفق طلبها، وزعت كل كتبها هدايا، وماهي إلا بضعة كتب جامعية، اشترتها أيام الدراسة، وما رجعت إليها، كانت تقول لي:"تعليم اللغة الأجنبية في مدارسنا فاشل، طلابنا حتى في الجامعة لا يتقنون الإنكليزية، ما الفائدة من المطالعة؟!"، أحيلت على التقاعد قبلي بعشر سنوات، بناء على طلبها، ودائماً تلومني على المطالعة، دائماً تسأل السؤال نفسه:" ما الفائدة؟ هل

سيزيد راتبك إذا قرأت؟ هل سيقدرك طلابك أكثر؟ على العكس، هم يقدرون الأستاذ الذي يتقيد بالكتاب المقرر، لا يريدون الخروج عن المقرر قيد أنملة، لأن الأسئلة في الامتحان العام تقيّدهم بالكتاب المقرر"، ظلت تكرر الكلام نفسه، حتى جعلتني أكره المطالعة، ولا سيما بعد إحالتي أنا أيضاً على التقاعد، ما عدت أشتري أي كتاب، وكنت من قبل إذا اشتريت كتاباً أدخلته إلى البيت خلسة، حتى لا تلومني، مرة اشتريت كتاباً سجل على غلافه ثمنه ١٥٠ ليرة، قبل دخولي إلى البيت، محوت برأس الدبوس الصفر، حتى لا تلومني على شرائه، ولكن لا بد من الإقرار، في الأيام الأخيرة تغيَّر موقفها، نغير موقفها من الكناريات فقط. في الحقيقة، ما عدت أعرف كيف أعيش؟!.

ذات صباح، حمل الأقفاص كلها بأقفاصها الخمسين، وضعها في شاحنة صغيرة وانطلق بها، شاهد زوجته أم معتز وهي في الشرفة، كأنها تودع ميتاً عزيزاً تحمله سيارة دفن الموتى، أشار إليها بيده ملوِّحاً، ومضى بالأقفاص كلها إلى صديقه أبو ناصر، ليعرضها للبيع، وحين رجع إلى البيت وجد زوجته في الغرفة الصغيرة، غرفة الكناريات، تتلمس الجدران، تنظر إلى المسامير التي كانت الأقفاص معلَّقة عليها، ربت على كتفها، التفتت إليه، همست:"سامحني يا أبو معتز، حرمتك منها، سامحني، في البداية ما أحببتها، ولكن في النهاية تعلقت بها، ليتك أبقيتها"، مسح دمعة من عينها، ثم

قال لها:"أقدّر مشاعرك، وأصدقك، رأيتك في الشرفة تطلّين على الشاحنة الصغيرة وأنا أنقل إليها الأقفاص"، تعلّق:"كنت أريد توديعها، وكنت أريد الاطمئنان عليها، كانت هناك قطة على الرصيف، كانت تنظر إلى الأقفاص وهي تتلمظ، خشيت أن تقفز إلى الشاحنة"، يضحك، يعلق:"ولكن هل نسيت؟ أنت من قبل هددت بإدخال قط إلى المنزل؟"، تعلّق:"كل شيء يتغير، الزمن كفيل دائماً بالتغيير"، يحكّ رأسه، يتكلّم: "اسمعي، أصغي إلى الكناري وهو يغرد في غرفتك، أبقيت لك أجمل كناري؟ ولكن الآن أنا تغيّرت، أفكر بشراء قط اسود ليلتهم هذا الكناري".

*

اليوم صباحاً يتصل به صديقه أبو ناصر، بل شريكه، صاحب محل أسماك الزينة، حيث وضع عنده الأقفاص كلها، يقول له:"احضر فوراً"، ويسأله:"ماذا حصل؟"، يقول:"الأسماك والكناريات، يا أبو معتز، كلّها، كلّها راحت"، يدهش، يسأله:"هل اعتدى على المحل لص؟ هل احترق؟"، ويجيب: "أما سمعت ليلة أمس؟! الرعود والعواصف والبروق، أما أحسست بالأمطار؟! نحن في الخامس عشر من نيسان، هو موسم الانقلاب الشتوي، هطلت أمطار لم يهطل مثلها منذ خمس سنوات، طوفان نوح، أسماكي عامت وماتت، وطيورك غرقت"، ويسرع إلى المحل، وهو قبو، ينزل إليه في عشر درجات، ليجد الكارثة.

*

وفي غرفة الكناريات، وقد خلت منها، يلتفت إلى زوجته يقول لها: "ليتها ماتت أمامي هنا وهي معلقة على هذا الجدار، أنتِ ما رأيتِها في القبو يا أم معتز، غارقة في الطين الأسود، مرمية في أرض القبو، إلى جانب الأسماك، نزلتُ إلى القبو كأنني أنزل إلى هاديس، عالم الموتى، عند الإغريق، أنت حكيتِ لي عنه من خلال قراءتك الأوديسة، بل كأنني أنزل إلى جحيم دانتي، أنت أيضاً حدثتِني عن الجحيم عند الشاعر الإيطالي دانتي، ولكن للأسف لم تحدثيني عن الفردوس، عتمة، وطين، كدت أنزلق على الدرج، روائح كريهة، الطين الأسود لوث ريشها الذهبي، والأسماك الاستوائية الملونة شربت الطين، غاصت في الطين، السيول انصبت كلها في القبو، غرق، أحواض الأسماك امتلأت، طافت الأسماك، شربت السيل الملوث بما حمل من قش وطين وأوساخ، ثم امتلأ القبو، غمره السيل، وصل إلى الأقفاص، ماتت غرقاً وهي في داخل الأقفاص، لا شك في أنها كانت ترف بأجنحتها، والماء يعلو، تحاول النجاة، ولكنها كانت حبيسة القضبان، هذا ما زاد من ألمي، ليتها حلقت في الفضاء قليلاً، ليتها رأت السماء، الطوفان ابتلعها قبل أن ترى السماء، ثم توقف المطر، وغيض الماء، ابتلعت الأرض الماء، مشى في البلاليع، وطفت الجثث الذهبية فوق الطين، من المفجع أن تري ريشها الذهبي مغموساً في الطين، كأنني في ميدان داخل مدينة كبيرة، دارت فيها حرب أهلية، وتناثرت الجثث في الشوارع

والساحات مع أكوام القمامة، لو أنها ماتت في السماء تحت مخالب النسور، مثل الجنود في معارك مشرفة على الحدود مع الأعداء، كانت تدفن على الأقل في الخنادق، ماذا أقول لك يا أم معتز؟"، وتعلق: "أنت تسرَّعتَ، أما رأيتّ محلَّه من قبل؟ أما انتبهت إلى أنه قبو، وموقعه قريب من النهر، فهو في أخفض بقعة، ومدينتنا تحيط بها الجبال والهضاب من كل الجهات، على كل حال هوِّن عليك، هذا هو قدَرُها، ستموت حيثما كانت، ستموت في القبو أو في البيت، أنت تنبَّأت لها بذلك من قبل"، يلتفت إليها، يمسح دموعه، يتكلم: "الآن أدركت، هذه هي النهاية، لا بد منها، ليس للأسماك أو الكناريات فقط، بل لنا نحن البشر، سواء كنا في قبو أم في الدور العشرين"، ويصمت، ثم يسأل، وهو يشير إلى رفوف الكتب في الجدار المقابل:"ترى كيف ستكون نهاية هذه الكتب والمكتبة، وأنت لا تحبين القراءة، ولا أحد من الأولاد يهتم بكتب الأدب، بل لم يعد أحد من البشر يهتم بها؟"، تشدُّ زوجته على يده، وهي تقول:"لا تحزن، ليست هي النهاية، ما يزال عندنا كناري واحد، هو في غرفة النوم عندي، هل نسيت؟"، يحاول الضحك، يتكلم:"لا، ما نسيت، لا بد من شراء قط أسود ليلتهمه، أو لابد من إطلاقه في الفضاء غداً مع الفجر، لنضع النهاية لقصة الكناريات"، تضحك، تعلق:"لا، قصة الكناريات ما انتهت، ولن تنتهي، قصة الكناريات ستبدأ من جديد"، يسأل مدهوشاً:"كيف؟"، تتكلم:"هيا

لنخرج من غرفة الكناريات إلى غرفة الجلوس، أعددت لك الشاي"، ويعلق:"كيف سنبدأ من جديد؟ وهو يحتاج إلى أنثى؟"، وتردّ بثقة:"ليس الأمر صعباً، سنتدبر له أنثى تليق به"، وتصب له الشاي، يتناول الكأس من يدها، وهو يعلق:" ولكن أنا ملّلْتُ، مللت كثيراً يا أم معتز"، ترد وهي تهمس:"سأبوح لك بسر، أمس زارني حفيدك حسام، رجاني أن أعطيه الكناري الوحيد الذي في غرفتي، قال إنه يهوى الكناريات، ويفكر في تربيتها، حفيدك حسام مثلك يهوى الكناريات، يا أبو معتز، الكناريات لم تمت"، يسأل:"أخشى أن تهدده أمه بتربية قط أبيض أو أسود، يا أم معتز"، تعلق وهي ترتشف الشاي:"حتى لو هددت، في النهاية ستحب مثلي الكناريات".

الآن عرفت سر بروز الكناريات في حياتي فجأة، وأنا في أرذل العمر، يوم كنت طفلاً كان جدي يحبّ الكناريات، في داره الواسعة المفتوحة الفسيحة، كان يعلّق أقفاص الكناري تحت عريشة الياسمين، وفي الليل يضع أقفاصها على حافة البركة، ويسهر أمامها في فناء الدار الواسعة، ويستمتع بالنسمات الصيفية المعطرة بعبق الياسمين، وإليه ينساب تغريد الكناريات مصحوباً بنشيش الماء وهو يتقافز من النافورة في البركة، وذات يوم أسمع أبي يقول لجدي:"ألا تمل من هذه الكناريات؟"، ويردُّ جدي:"هي خير أنيس لي في وحدتي، لا أحد يزورني، لا أنت ولا إخوتك ولا أخواتك، كل واحد منكم أصبح له بيته، وزوجته، وبقيت أنا وحدي، وأمك إما في المطبخ،

وإما عند الجيران، كنتَ أنتَ وإخوتك وأخواتك حولي مثل هذه الكناريات، واليوم أنا هنا دائماً وحدي، هي تسليتي الوحيدة، لا أرى أحداً منكم غير مرة في الأسبوع أو الأسبوعين، وأنا هنا وحدي، صدِّقني عندما أحمل إليها الطعام أجدها ترسل إليَّ تغريداً خاصاً كأنها تعرفني، بل هي تعرفني، وتشكرني ... ولا أعرف إذا مت ماذا سيحل بها؟!"، لعل كلمته ظلت راسخة في أعماقي، حتى إني نسيتها، بالتأكيد نسيتها، واندفعت قبل ثلاث سنوات بفرح طفولي إلى شراء زوجين من الكناري، وتربية الكناريات في شقتي، بل في غرفتي الشرقية الصغيرة المغلقة، لقد واجهت بها وحدتي، أم معتز في المطبخ، أو عند الجيران، وأنا في الشقة وحدي، إحالتي على التقاعد حطمتني، حتى المطالعة كرهتها، يا للكناريات المسكينة، لا أعرف كيف أمكنها أن تعيش في تلك الغرفة؟ ويا لموتها البائس؟! حقيقة، كما قال صديقي أبو سليم، عاشت حبيسة الأقفاص والغرفة الشرقية الصغيرة المغلقة، وماتت حبيسة الأقفاص والقبو والطين. لا بأس، إذا كان لدينا حفيد مثل حسام يهوى الكناريات، ويعد بالعناية بها وبتكاثرها، فهل لنا من حفيد آخر يهوى كتب الأدب؟ لا أعرف ماذا سيكون مصير هذه الكتب؟ هل أعرض على صديقي أن ينظف القبو، ويجعل منه مكتبة يعرض فيها كتبي للبيع؟ وهل سينال منها السيل وتغرق أيضاً في الطين؟

لا يسمح لأحد أن يعكر مزاجه

ينـزل أكثـر المـوظفين فـي الشـركة إلـى الشـارع مدهوشين لينضموا إلى الناس المتجمعين حوله، تطل الموظفـات مـن النوافـذ مدهوشـات، تتـردد التعليقات:"هذا غير متوقع"، "لماذا فعل هذا؟"،"ربما خرج من البيت بعد خصام مع زوجته"، "هو عريس، ما مضى على زواجه غير شهر"، "الأمر غريب"، "هو طيب وهادئ"، "مزاجه دائماً هادئ"، "في الواقع لا يسمح لأحد أن يعكر مزاجه".
وتحضر سيارة الإسعاف، وفي إثرها سيارة الشرطة.

*

وقف على الرصيف ينتظر سيارة أجرة، التفت إلى الشرفة، رأى زوجته تقف، تودّعه، أشار إليها بيده. يوم جديد، يستقبله بتفاؤل، نهض باكراً، استحم كعادته كل صباح، حلق ذقنه، رشت زوجته على ذقنه وعنقه وكتفيه العطر، قبلته، قعد إلى المائدة، تناول الإفطار معها، عند الباب ودعها بقبلة، ونزل على الدرج. أشار إلى زوجته ثانية، مودعاً، وهي ما تزال في الشرفة، يطلب منها الدخول.
على الرصيف إلى جواره أكياس قمامة سوداء، بعضها تناثرت منه القمامة، ابتعد عنها.

وقفت أمامه سيارة أجرة، مد رأسه من النافذة، غمره دخان سيكارة من النوع الرخيص جداً، وجه السائق ضخم، في زاوية فمه سيكارة، عنقه غليظ مثل جذع شجرة زيتون عمرها ألف عام، اللغد يتدلى أسفل ذقنه مثل لغد في عنق ثور هائج، حيّاه:"السلام عليكم"، استل السائق السيكارة من فمه، نفث الدخان، سأله السائق بنبرة جافة:" إلى أين؟"، أجابه:"رُدَّ علي السلام، يا أخي"، أجابه السائق بصوت أجش، وهو ينفث دخان سيكارته:"وعليك السلام، قل لي، ما هي وجهتك؟"، أجابه، وهو يبتسم:" شركة التعمير، في الشمال"، وضع السائق السيكارة في زاوية فمه، دفع بيده مبدِّل السرعة، صاح وهو يزمجر مثل الرعد:"أوه، لا،لا، طريقي، عكس طريقك، أنا متجِّه للجنوب"، وانطلق بسيارته.

رفع رأسه إلى الشرفة، لا بأس، الزوجة مضت إلى الداخل، لم تشهد خيبته. ما يزال يشعر بالبهجة، ويحس بالنشوة، وهو متفائل بنهار جديد، لن يسمح لأحد أن يعكر مزاجه.

التفت إلى أكياس القمامة، ابتعد عنها أكثر.

رأى سيارة مقبلة، نزل عن الرصيف، خطا خطوتين في الشارع، السيارة اقتربت، أشار إلى السائق بيده، ولكن السائق ظل منطلقاً، كأنه لم يره، تأكد من أن السيارة فارغة، لا أحد فيها، سوى السائق، تأكد من أن السائق قد رآه، وهو يشير إليه، ولكن، لماذا لم يقف؟. ماذا في هيئته؟ هل هو متسول؟ هل ثيابه رثة؟ هل يبدو عليه أنه قاطع طريق؟ على العكس،

هو في كامل أناقته، شذى العطر لم يغادر بعد ذقنه ولا عنقه، ودفء قبلة زوجته ما يزال يحس به على خده، ليس معه حقيبة سفر ولا حقائب ولا أكياس ولا حاجات؟؟ هل يبدو عليه أنه موظف؟ ما هي المشكلة؟.

ذبابة حامت حوله، حاولت أن تحط على ذقنه، جذبتها رائحة العطر، أشاح عنها، أزاحها بحركة من يده، ابتعد عن أكياس القمامة أكثر فأكثر.

سيارة مقبلة، تقدّم نحو منتصف الشارع، أشار إليها، وهي ما تزال بعيدة، أضاء له السائق مصباح السيارة، في إشارة استجابة، قبل وصولها إليه بنحو ثلاثمئة متر، قفزت من بين السيارات المركونة إلى جانب الرصيف صبية شقراء، نحيلة، مرسلة الشعر على كتفيها، في بنطال ضيق، أشارت بيدها، ووقفت عندها السيارة، صعدت فيها، وانطلقت بها، لدى مرور السيارة أمامه، كان السائق يلتفت إلى الطرف الآخر، كأنه لا يراه.

نظر إلى ساعة يده، ما يزال في الوقت متسع، أمامه نصف ساعة، يمكنه أن يصل في عشرين دقيقة.

فجأة تقف قبالته في الاتجاه الآخر سيارة، كأنه لم يرها من قبل، أشار إلى السائق بيده، دالاً على أن طريقه في الاتجاه المعاكس، بسرعة فائقة التف السائق بسيارته، وحط أمامه مباشرة، مد يده، فتح الباب، السائق كرة كبيرة من اللحم، جثة هائلة، المقود يغوص في بطنه، رأسه صغير، أصلع، كأنه رأس عصفور، لا يتناسب وحجم جسمه، صوته

ناعم، كأنه صوت أنثى، يداه قصيرتان، بادره قائلاً :"تفضل أستاذ"، قال له:"إلى شركة التعمير"، صمت السائق، طال صمته، أجابه بلطف:"أرجوك، اعذرني، كان بودِّي أن أخدمك، ولكن شركة التعمير في الطرف الشمالي، ويجب أن أخترق المدينة، أمامي عشر إشارات مرور، والآن بداية دوام الموظفين، الزحام شديد، أنا بخدمتك، ولكن، اعذرني"، وانطلق بسيارته.

صمت، نظر إلى ساعة يده، لا بأس، لن يسمح لأي شيء أن يعكر مزاجه، فلينتظر.

الذبابة تحطّ على مؤق عينه، يطردها، يبتعد عن أكياس القمامة أكثر، "من أين جئت أنت؟ لا أريد أن أعكر مزاجي".

سيارة قادمة من أقصى الشارع، عرفها على الفور من الشعار المثبت فوقها، هي إحدى سيارات شركة متخصصة للنقل بالأجرة، أشار إلى السائق، وقف أمامه، مدّ رأسه من النافذة، سائق وسيم، في زي خاص، السيارة حديثة، المقعد نظيف، نفحته أشذاء عطر ناعم وأصداء موسيقا هادئة، التفت إليه السائق، رحب به، فتح باب السيارة، وهم بالدخول، السائق سأله:"هل أنت مشترك جديد؟ وهل اتصلت بالمركز؟"، دهش الشاب، علَّق السائق:"أنا آسف يا أستاذ، هذه شركة نقل خاصة، تخدم بالأجرة المشتركين فقط"، واستل بطاقة قدمها له، وهو يقول:"تفضَّل، هذا رقم المركز، يمكنك الاتصال، ودفع اشتراك شهري، ونحن بخدمتك، فقط اتصل في

أي ساعة، وننقلك حيث شئت، في الوقت الذي تريد".
انسحب، أغلق باب السيارة بهدوء، السائق كرّر اعتذاره بلطف، وانطلقت السيارة.
ما يزال في داخله بقايا من شذى السيارة وموسيقاها الهادئة.
"لن أنفعل، يومي جديد، وأنا خرجت من البيت مسروراً، لن أعكر حياتي".
نظر إلى ساعة يده، بقي ربع ساعة على بدء الدوام، ليس في الأمر مشكلة، يمكنني أن أتأخر ربع الساعة، ما يزال أمامي متسع من الوقت.
ولكن من أين جاءت هذه الذبابة؟ لم يبق إلا أنت؟ لن أنفعل، لست أنت المشكلة. وهذا السائق الشاب له عذره، لا يستطيع أن يوصلني، لا بد أن أكون من المشتركين، حقيقة، الزحام في المدينة شديد، وهناك أكثر من عشر إشارات مرور، أنا مخطئ، يجب أن أخرج من البيت قبل ساعة، لا ضرورة لسيارة الأجرة، يمكن أن آخذ الحافلة، حافلة النقل العام أوفر، حتى السائق الأول له عذره، لعله متجه إلى الجنوب، ربما انتهت نوبة عمله على السيارة، وهو يريد تسليمها لسائق آخر، معظم هؤلاء السائقين مساكين، أكثرهم ليسوا مالكي السيارات، أكثرهم يعملون بالأجرة، أحدهم يعمل تسع ساعات، أو اثنتي عشرة ساعة، ثم يسلم السيارة لسائق آخر، ومالكها مستريح، تأتيه الأرباح وهو نائم في فراشه.

لن أعكر صفو حياتي، يجب أن ألتمس لهؤلاء السائقين ألف عذر، كان الله في عونهم.
مرة أخرى تهاجمه الذبابة، يبتعد عن القمامة بضع خطوات، أي نوع هذا الذباب؟!.
أوه، هذه سيارة، تتهادى ببطء، هي من طراز قديم، ومتسخة، لعل صاحبها لم يدخل بها إلى المغسلة منذ شهر، أو أكثر. تقف أمامه، شيخ عجوز، ناحل، عروق يده الزرقاء نافرة، صغير الجسم، يقعد وراء المقود ولا يكاد يظهر، على عينيه نظارة طبية سميكة جداً، ترى هل يبصر الطريق؟ وكيف يقود السيارة، حتى إن الزجاج في العين اليسرى من النظارة مكسور.
يقول له:" مرحباً ياعم"، ويرد:"أهلاً بابن أخي، تفضل"، ويسأله:" هل توصلني إلى شركة التعمير"، ويرد السائق العجوز:" أنا بخدمتك، هذا هو عملي، لماذا أنا هنا في السيارة، مستعد لأوصلك إلى برج إيفل"، ويدخل في السيارة، يقعد إلى جواره. وهو يعلق:"شكراً لك ياعمي، أنت رجل طيب، يكفي أن توصلني إلى شركة التعمير، عندي دوام، لا أريد برج إيفل، فهو في باريس، وهو بعيد، نحن هنا في آسية وهو هناك في أوربة"، العجوز يضحك، يضحك، يمد يده إلى سلسلة مدلاة من المرآة المعلقة أمامه، وهو يقول له: "انظر، هذا هو برج إيفل". ينظر، ويضحك، ثم يعلق:"ها قد وصلنا حقيقة إلى برج إيفل، كم هي أجرتك؟"، العجوز يضحك، يعلق:"

الأجرة إلى برج إيفل مجاناً، أقسم بالله لن آخذ منك إلى برج إيفل أي ليرة"، ويستغرقان في الضحك.
السائق العجوز غائر الوجنتين، فمه واسع، شعره أبيض، كث، كأن شعرة واحدة لم تسقط منه، لامع، مسرح بعناية، آثار أسنان المشط ظاهرة فيه بوضوح، يداه تمسكان بالمقود بقوة، عروق يديه زرقاء نافرة، يكاد الدم ينفجر منها.
السائق يتكلم:" يا ابن أخي، الطريق إلى شركة التعمير عبر المدينة مزدحمة، وأمامي أكثر من عشرين إشارة مرور، وأخشى أن تتأخر عن عملك، واضح، أنت موظف هناك، ما رأيك لو ذهبنا في الطريق الملتفة حول المدينة؟"، ينظر الشاب في ساعة يده، ويجيب:" لا بأس". ويدخل السائق في شارع فرعي، ويصير بعد دقائق في الطريق السريعة الملتفة حول المدينة.
يا إلهي، كيف سلمت روحي إلى هذا السائق العجوز، هذا قد يموت بعد ساعة، ربما يموت ونحن في الطريق.
السائق يميل نحو المذياع، يبدأ بالبحث عن محطة، وهو يتكلم:" سأبحث لك عن محطة فيها أغنية صباحية جميلة، حتى تتسلى".
السائق يقود على مهل، يمد عنقه من وراء المقود ويميل إلى أمام ليرى الطريق، بين حين وآخر ينظر في المرآة المعلقة أمامه، ليرى السيارات التي وراءه، سيارات كثيرة تتجاوزه، وهي تطلق زعيقاً صارخاً،

كأنها تريد تنبيه السائق من غفوته، أو توبيخه، فهو يقود ببطء في طريق دولية سريعة.
السائق يتكلم:" يا ولدي، هؤلاء طائشون، يأخذ أحدهم اليوم رخصة قيادة، ويبدأ غداً يقود سيارته بسرعة، ليس عندهم خبرة، وأخطر ما يكون الأمر في مثل هذه الطرق السريعة المتلفة حول المدينة".
الشاب يصمت، ينظر إلى العروق الزرقاء النافرة في يديه، وهو يتمسك بالمقود، كأنه يتعلق بطوق نجاة، يتوقع بين حين وآخر أن ينفر الدم منهما.
الخطأ أني ركبت معه في سيارته، الخطأ هو خطئي أنا، لو سرت على أقدامي لكان الأمر أفضل، هذا العجوز يلهث، ولا يكاد يبصر الطريق، نفسه يتقطع، لعله يموت بعد ساعة، لعله يموت قبل أن نصل إلى الشركة.
السائق يتكلم: "هل تريد أن أقود بسرعة مثلهم، صدقني أستطيع الدخول معهم في سباق دولي، ولكن أنا حريص على سلامتك، سيارتي حديد، تتحدى كل سياراتهم، ولكن السلامة أولاً، من يتأخر ربع ساعة مثل من يتأخر خمس دقائق، في هذه الأيام كل الموظفين يتأخرون، حتى المدير نفسه يتأخر، السلامة ياولدي أهم شيء".
يمد عنقه إلى امام، يرفع رأسه، ينظر في المرآة، يميل نحو المذياع، يبحث عن محطة، فيروز تغني:
على هدير البوسطه
اللي كانت ناقلتنا
من ضيعة حملايا

على ضيعة تنورين
شفتك يا عليا وشفت عيونك
يخرب بيت عيونك يا عليا
شو حلوين
يعود السائق إلى الكلام:" سيارتي أنا حديد، وسياراتهم تنك، وساعدي أنا حديد، وساعدهم شيكولاته، هات مد يدك، هات"، ويمد الشاب يده، يمسك بها العجوز، يشد عليها قبضته، يضغط، يضغط، حقيقة يده كلابة من حديد، يبدأ يشعر بالألم، العجوز يقول:"آلمتك، قل ، اعترف، لا تخجل، رأيت؟ أنا مستعد أن أنزل وأصارع هؤلاء الشباب الذين يتجاوزون سيارتي".
السيارة بطيئة، أدرك أن السيارة بطيئة، وهي غير قادرة على أن تسير في الطريق السريعة.
العجوز يتكلم: "أمامنا محطة وقود، البنزين فيها ممتاز، إذا كان عندك بعض الوقت، فقط، بخمس دقائق أملأ الخزان، ما رأيك؟ الأمر يعود لك، أنت مالك السيارة، أنت صاحب الأمر، وأنا خدامك، ما دمت قد تأخرت، خمس دقائق أخرى من التأخير لن تضر، ما رأيك، الأمر يعود لك".
ويدخل بسيارته إلى المحطة، يملأ الخزان، يحضر زجاجة ماء، يفتح غطاء المحرك، يملأ المبرد.
ويعود إلى مكانه وراء المقود، يمد يده إلى صندوق صغير أمامه، يفتحه، يسحب منه خرقة عتيقة، يمسح بها يديه، يمسح ساعديه، يمسح العروق الزرقاء النافرة، يعيد الخرقة إلى الصندوق.

السيارة ما تزال تسير الهوينا، والسائق يتكلم:"لا أستطيع أن أكذب عليك، الله هو الذي بعث لنا هذه المحطة، حرارة المحرك ارتفعت، على كل حال عشر دقائق وندخل المدينة من الطرف الآخر، ولا يبقى سوى القليل حتى نكون أمام شركة التعمير، وأنت شاب طيب، وكريم، أرجوك سامحني، اعتبرني مثل والدك، لا شك أني أخرتك، ماذا أفعل، سيارتي قديمة كما ترى، يجب أن أعيش".

الشاب كان قد لمح سكيناً طويلة النصل داخل الصندوق، عندما أخذ العجوز الخرقة.

يسأل بفضول:"لماذا هذه السكين ياعم؟"، العجوز يجيبه:" أحياناً أشتري تفاحة، فأقشرها، وأحياناً يكون العداد مئة ليرة، ويعطيني الراكب خمسين ليرة، أعرف أنه لص، قاطع طريق، أستل السكين، أهدده بها، صدقني أشتهي قطع حنجرته، ولكنه فور رؤيته السكين في يدي يعطيني مئة وخمسين، مثل الكلب، بدلاً من مئة، أنا ما استعملتها أبداً، هي للاحتياط فقط، التلويح بها يكفي، هي تعطيني الشعور بالأمان".

كيف ستستعملها ياعم، وأنت على حافة قبرك، يكفي أن يقول لك راكب لن أدفع لك حتى تسقط ميتاً قبل أن تمتد إليها يدك، وأنا أخشى الآن أن تموت قبل أن نصل إلى شركة التعمير، ولكن ها أنذا أراك تلف وتدور وتخدع وتكذب، بل تنزل وتفتح باب المحرك، وتتحرك وكأنك ابن عشرين، حركتك مثل القرد، وتشد على يدي، فتكاد تكسر معصمي، ولكن ما هي إلا

حركة ما قبل الموت، الشيوخ هكذا يتعلقون بالحياة، ويستنفدون أقصى طاقتهم، ليؤكدوا أنهم أقوياء، ولكن لا أشك لحظة في أنك ستموت فور وصولنا إلى الشركة، المهم أن توصلني أولاً إلى الشركة، وبعد ذلك يمكنك أن تعيش مئة عام أخرى إذا شئت، أو لا تعيش. لا بأس، هي رحلة مسلية، وإن كانت مزعجة، لن أستاء، فأنا خرجت من بيتي مسروراً، وتخلصت على الأقل من الذبابة اللعينة، لا أريد لأي شيء أن يعكر صفو حياتي، يجب أن أعود إلى البيت مسروراً، لن أسمح لأحد بتعكير مزاجي.

ويدخل العجوز بسيارته إلى المدينة من الطرف الشمالي، يدخل شوارع فرعية، يجتاز إشارة حمراء، وهو يقول: "لأجلك خالفت المرور واجتزت إشارة حمراء، لا أريد تأخيرك"، ويصمت، ثم يسأل:"قل لي ما اسمك؟"، وبعفوية يرد الشاب:"خالد"، السائق العجوز يغمغم: " والدك متفائل، سماك باسم خالد بن الوليد، لتكون مثله، ولكن الزمان يا ابني تغير".

أمام شركة التعمير، تقف السيارة، ساعدا السائق مشدودتان على المقود، كأنه طوق نجاة يتمسك به، عروق يده الزرقاء نافرة، كأن الدم ينبجس منها. الشاب ينظر إلى العداد، السائق يقول له:"لا تنظر إلى العداد يا ابن أخي، لن آخذ منك أجرة"، الشاب يرد:"لا، لا يجوز ياعم، العداد يشير إلى خمس وسبعين ليرة، أنا سأكرمك، سأعطيك مئة"، السائق العجوز، يمسك الشاب من يده، يشد على معصمه، يصيح به:"مئة، ماذا تقول: أنا سأصيح، سأجمع كل

الموظفين في شركة التعمير، سألم الناس عليك، ثلاثمئة، لا أرضى بأقل من ثلاثمئة، أنا سرت بك في الطريق الدولية، وهذه أجرتها مختلفة".
يا إلهي، قبضة يده قوية، كلابة من حديد، ماذا سيفضحني؟ سيستل السكين ويذبحني؟.
يرسل العجوز صرخة مخنوقة.

*

ينزل أكثر الموظفين من الشركة، ينزل المدير، الناس يلتفون حول السيارة، السائق العجوز وراء المقود، والدم ينفر من عروق يده الزرقاء، من عنقه، الشاب خارج السيارة قميصه ملوث بالدم.
في مخفر الشرطة يقول مدير شركة التعمير للضابط: "لا أصدق، هو من خيرة الموظفين، مضى عليه في العمل عشر سنوات، ما تخاصم مع أي زميل، أو مع أي مواطن، لا أعرف لماذا قتل العجوز، وهو على حافة قبره"،.

حرمنا من بهجة العيد

يرن هاتفه الجوال، ينظر فيه، وإذا هو والده، يلتفت إلى أخويه، وهما وراءه في المقعد الخلفي من سيارة الأجرة، يقول لهما:

. ما ارتحنا منه، لحق بنا حتى هنا.

يعلّق الأوسط:

. كيف قال لنا: عيشوا أيام العيد على هواكم؟.

يعلق الأصغر:

ـ ندم، رجع في كلامه، يجب علينا العيش على مزاجه وهواه، أنا أعرف.

يعلق الأوسط:

. أغلق الجوال، ولا ترد.

يضيف الأصغر:

ـ ردّ باختصار، افهم منه ما يريد؟ ربما كان عنده صديق آخر حتى نزوره معه؟!

يفتح الجوال، يرد:

. نعم، ماذا تريد؟

يأتيه صوت غريب يسأل:

. تعرف صاحب هذا الجوال؟

يدهش يسأل:

. من أنت؟ هذا جوال أبي؟ هل أضاعه؟ أين عثرت عليه؟ هل سرقته منه؟

يأتيه الصوت هادئاً:
. استمع بهدوء ولا تستعجل، سوف أخبرك، الموضوع بسيط، لا تقلق.
ويصيح به:
. تكلّم، قل لي من أنت؟ وماذا تريد؟ أين أبي؟

*

يتنبّه إلى ولده صفي الدين، وهو يشير إلى الساعة المعلّقة على الجدار، ينظر فيراها تشير إلى الثانية والنصف، يلتفت إلى صديقه.
. أرجو أن تسمح لنا، أمامنا زيارات كثيرة.
ويرد مضيفه:
ـ أنا سعيد بزيارتك وزيارة أبنائك الشباب، ويسرني تناولكم الغداء معي.
ـ أشكرك، ما توقعت مرور الوقت بسرعة، نحن هنا منذ ساعة ونصف، كرمك أنسانا الوقت، هي زيارة تهنئة في العيد، أنا يسرني البقاء، أنت تعرف مكانتك عندي، ولكن للأولاد حق، عندهم أصدقاء، ولا بد من زيارتهم.
ينهض هو وأولاده.
يستوقفهم، يقول لهم:
ـ أظن سمعتم صوت الكناريات وهي تغرد، تفضلوا إلى الشرفة.
في الشرفة ثلاثة أقفاص، في كل قفص زوجان من الكناريات الصفراء الذهبية كالشمس، تغرد.
علاء يتكلم:

. هذه الكناريات هي هوايتي بعد إحالتي على التقاعد، أقعد أمامها في الصباح أتأملها، أصغي إلى تغريدها، كل يوم أضع لها الطعام الجديد، أنظف الأقفاص، أضع لها البيض المسلوق، أتأملها وهي تزق فراخها، لو رأيتم الأم كم هي حريصة على الفراخ، تقعد فوقها، تغطيها بجسمها، تفرش فوقها أجنحتها، ترد عنها البرد والحر، ويقف الذكر إلى جوارها، يزقها الطعام، كي لا تغادر الفراخ، وإذا ما غادرت العش، لتأكل، أوتشرب، أو تحرك جناحيها، قعد هو بنفسه في العش فوق الفراخ، بل يزق هو بنفسه الفراخ، وإن كانت هي مهمة الأم، لا تعرف أيهما أكثر حناناً على الأولاد، الأم أم الأب؟

ويسأله صفي الدين:

. كم بيضة تضع الأنثى؟

ـ ثلاث بيضات أو أربع بيضات، ولكن لا يعيش غير فرخين.

ويسأل مجد الدين:

. كم مرة تضع البيض في السنة؟

ـ إذا توافر لها الغذاء الجيد والجو المعتدل وضعت بيضات جديدة بعد تمكن الفراخ من تناول الطعام بنفسها، في كل شهرين تبيض مرة.

ويسأل مالك:

. وهل تبيع هذه الفراخ ياعم؟

يضحك علاء:

ـ لا يا ولدي، هذه الفراخ هي أولادي، هل يبيع أحد أولاده؟ أنا أقدمها هدية للأصدقاء، كي تعيش في

بيوت جديدة، وتبدأ حياة جديدة، تماماً مثلما يزوج الرجل ابنه، أو ابنته، يودع الأب والأم أولادهم، ليبدأ الأولاد حياتهم.
يودعه، هو وأولاده الثلاثة، ويخرجون.

*

يشعر بالسرور، يهبط على الدرج، يتقدمه أولاده الثلاثة، صفي الدين، ومجد الدين، ومالك، يحس كأنه يحلّق فوق الدرج، كأنه يطير.

*

وهو يقرع الجرس قبل الدخول إلى المبنى يقول لهم:
ـ تسرني زيارة صديقي علاء بصحبتكم يا أولادي، لتهنئته بالعيد، انظروا إلى اللوحة على باب البناء: الدكتور عادل علاء الأكرم طبيب أسنان، الدكتور علي علاء الأكرم طبيب جراح، الدكتورة علياء علاء الأكرم طبيبة نسائية، الدكتور عدنان علاء الأكرم مهندس عمارة.
وهو في غرفة الاستقبال الفخمة ينظر إلى أولاده الثلاثة وهم يقعدون أمامه. مالك، أسمر طويل نحيل، وهو الأصغر، الأكثر ذكاء، لا بد أن ينال الشهادة الإعدادية بترتيب الأول، ليحظى بمنحة دراسية، مجد الدين، الأوسط، موفور الصحة، ميال إلى السمرة، حيوي نشيط، في الثالث الثانوي، سينال الشهادة الثانوية بمعدل ممتاز، سيدخل كلية الطب، وسيتخصص في الجراحة العامة، الدورات والدروس الخاصة كلفته مبلغاً ليس بالقليل، استدانه من صديق عزيز، من صديقه علاء، صفي الدين أشقر، وسيم،

طويل، في السنة الثانية من كلية الهندسة، المعجبات به كثيرات، يحمل أربع مواد من السنة الأولى، معدل علاماته قليل، ولكن سيحقق المعدل الجيد على الأقل.

يتأملهم وهم في مقاعدهم، يراهم يملؤون غرفة الاستقبال، صفي الدين في بدلته الكحلية، المناسبة جداً لشعره الأشقر، ربطة عنقه عقدتها أمه، بعناية، هاهو أمامه كأنه وزير، في رصانته ووقاره. مجد الدين، يتحرك في المقعد، يهم بأن يضع رجلاً على رجل، ولكنه يعدل عن ذلك، بدلته خرنوبية مناسبة جداً، كم هو متألق، اعتذر عن ربطة العنق، مالك في بدلته الفضية، كم هي مناسبة لسمرته، وربطة عنقه الكحلية أنيقة جداً، أنا عقدتها له بيدي.

منحت كل واحد منهم زجاجة عطر، من نوع بروت، عطري المفضل، أيام الشباب، عطر القوة والرجولة.

مجد الدين لم يحلق ذقنه، لم يضع ربطة العنق.

لا بد من بعض المواقف التي تحز في النفس، ولكنها مقبولة، فهم شباب من جيل جديد، ولهم أذواقهم، ولكن لا بد من مراعاة الذوق العام.

ليست بدلاتهم من أفخم محل في المدينة، وليست أوربية مستوردة، ولكنها ليست رخيصة مبتذلة، وكذلك الأحذية وربطات العنق، ولكنها كلها مقبولة، بل أنيقة، أنا، حين كنت في عمرهم لم ألبس مثلها، وأنا ما اشتريت مثلها منذ ثلاثة أعوام. أولادي أولى بها مني. كان بودي شراء ما هو أجمل منها. ولكن لا أريد الإفراط في العناية بالمظهر، ولا أريد

الإهمال، الدورات والدروس الإضافية والكتب أهم، لا بد من العدل والاعتدال.
هو العيد، ولا بد من بعض الملبوسات الجديدة، ولا بد من بعض الحلويات، ولا بد من الطعام المتميز في العيد المختلف عن الطعام في باقي الأيام. أيضاً لا بد من بعض الزيارات للتهنئة بالعيد، بالطبع لم يعد بالإمكان زيارة كل الأقارب وكل الأصدقاء، بيوتهم تباعدت في أرجاء المدينة وتناثرت، والمدينة امتدت واتسعت. طبيعة الحياة اختلفت.

*

أسير إلى جوار أبي، أمسك يده، هو يمسك يدي، يده كبيرة، قوية، يدي صغيرة ناعمة، أقبّل يده، أتنسّم عبق عطر الورد، أتلمس الشعرات البيض في ظهر يده، كم أنا صغير وقصير، وكم أبي كبير وطويل، خطواته على بلاط الزقاق قوية وسريعة، وأنا أعدو إلى جواره بخطواتي الصغيرة كي أبقى إلى جواره، الأزقة ضيقة، متعرجة، خطواتي تكاد تتعثر فوق بلاطها المفلطح، أشم رائحة أطعمة العيد، وما فيها من دسم، أشم رائحة الكعك، أمام دار أرى كبشاً مذبوحاً والدم منداح تحت عنقه، وأمام دار أخرى أرى كبشاً معلقاً من عرقوبه والجزار يسلخ جلده، أكثر من مرة يقف أبي ليسلم عليه بعض الرجال، يعانقهم، يعانقونه، يهنئهم بالعيد، يهنئونه، يمسحون بأيديهم على رأسي، ثم نمضي نسرع في الخطا، نزور أعمامي وأخوالي وأصدقاء أبي، أرجع إلى البيت جيبي مملوء بالحلويات وقطع النقود.

*

وهو يغلق الباب وراءه، يلقي نظرة على اللوحة المعلقة إلى جوار الباب، يقرأ الأسماء.
لماذا لا يكون أولادي مثل أولاد صديقي علاء الأكرم، ليس عندي فيلا فاخرة مثله، ولكن أنا أسعى جهدي لتوفير كل ما يحتاجون إليه. على كل حال يكفيني أنهم أولاد طيبون، مطيعون، أخلاقهم عالية، بل سينجحون، وسيكون كل واحد مثل أولاد علاء، بل أفضل، سأراهم أطباء مهندسين صيادلة، كل شيء ممكن، لا أعرف المستحيل.

*

بعد بضع خطوات يستوقفهم على الرصيف يسألهم:
. ما رأيكم في زيارة صديقي ماجد، واسمه من اسمك يا مجد الدين؟
صفي الدين يسأل بنبرة حادة:
. يسكن في فيلا مثل علاء؟ وأولاده دكاترة؟
يضيف مجد الدين:
ـ ونقعد عنده ثلاث ساعات ليعطينا مثل صديقك علاء ألف درس في الأخلاق وطاعة الأبوين والاهتمام بالدراسة والتفوق والاختصاص؟
يذهل، يصمت، يفاجأ، يسأل بهدوء:
. زيارة علاء ما كانت مريحة؟
يصمتون، يضيف:
ـ ماجد مختلف، يسكن في حي شعبي فقير، شقته متواضعة، أولاده عمال بسطاء، ما تابعوا الدراسة.
مجد الدين ينظر إلى نهاية الشارع يعلّق سائلاً:

. نزوره ليرى بدلات العيد الجديدة؟.
صفي الدين يفك ربطة عنقه، يشدها بقسوة، يطويها يضعها في جيبه، يتكلم:
ـ أنا راجع إلى البيت، لأبدل ثيابي، سأزور صديقي سامر، عندنا عمل على الحاسوب، سوف نستفيد من عطلة العيد لإنجازه.
يضيف مجد الدين:
. أنا وقتي ثمين، بعد شهرين عندي امتحان الشهادة الثانوية.
يعلق مالك:
. وأنا أعتذر، عندي دراسة وتحضير.

*

صفي الدين، أكبرهم، يلتفت إلى والده، يسأله:
ـ أريد سؤالك، لماذا تحرص في كل عيد على زيارة علاء، ونحن في صحبتك، وهولا يزرونا؟.
ويتكلم مجد الدين، أصغرهم، ويسأل:
ـ هذا صحيح، ولما كنت في المستشفى أول مرة ما زارك غير مرة واحدة.
ويضيف مالك:
ـ وحتى لما دخلت إلى المستشفى مرة ثانية ما زارك غير مرة واحدة.
الأب يضع يده اليمنى على كتف مالك، ويده الشمال على كتف مجد الدين، يطرق، ثم يرفع رأسه، يواجه بعينيه صفي الدين، وهو يحاول إخفاء الدموع المترقرقة في عينيه:

ـ يا أولادي، لما أصابتني الجلطة أول مرة، عمكم علاء دفع كل مصاريف المستشفى، وفي المرة الثانية، دفع كل مصاريف المستشفى، وأجرة الدورات والدروس الخاصة، يا مجد الدين، استدنتها منه.
يطرق رأسه، ثم يرفعه ليقول:
ـ وإذا أصابتني جلطة ثالثة، فلا تخبروه، أنا أحس بالخجل أمامه.
يضغط على كتفي ولديه، يرسل نظرة نحو مجد الدين، ثم يقول لهم:
. اذهبوا حيث شئتم، عيشوا أيام العيد على هواكم، الله معكم.

*

يقطعون الشارع مسرعين إلى الرصيف الآخر، وهو واقف في موضعه من الرصيف يتابعهم بقلبه وعينيه، يرى قاماتهم وهاماتهم، وسرعان ما يغيبون عن أنظاره في شارع فرعي، يظل واقفاً هنيهة، ثم يمضي وحده على مهل يجر خطواته.
سامحكم الله يا أولادي، قتلتموني من حيث لا تدرون، ولكن لن أقول عنكم إنكم قتلة، لن أقول ليتني لم أصطحبكم في زيارتي لعلاء.

*

صفي الدين يتكلم:
. ما رأيكم؟ أدعوكم إلى صندويشات همبرغر، لا أريد العودة إلى البيت، اليوم أمكم في المطبخ، ولا بد من اللحم والفريكة، طعام العيد دسم، كلنا لا نحبه، وعلى

المائـدة يجتمـع الأخـوال والخـالات، أو الأعمـام والعمات؟
. أنا أكره هذه الواجبات الرسمية والمناسبات.
. وأنا: أكره شيء عندي هو المناسبات والولائم.
. أنا أقترح البيتزا؟
. لا بأس، أدعوكم إلى البيتزا مع الكولا.
وعلى الفور يشير صفي الدين إلى سيارة أجرة، يفتح الباب الأمامي، ينخرط في المقعد إلى جوار السائق، يلقي أخواه بنفسيهما في المقعد الخلفي.

*

السيارة تنطلق بهم، وتنهمر التعليقات، وسط قهقات صاخبة.
ـ أنـا أعـرف، أبونـا أخـذنا إلـى زيـارة صـديقه عـلاء ليعطينـا ألـف درس فـي الأخـلاق والإحسـان إلـى الأبوين والتفوق في الدراسة والتخصص.
ـ وإذا دفع العم علاء نفقات المستشفى؟ ماذا يعني هذا؟ هل هو وصيٌّ علينا؟ هل يعني استعبادنا؟ أنا بكرة أعمل، وأرد عليه كل ما دفعه.
. وأنا لا أريد الدروس الخاصة ولا الدورات، لن أذهب بعد اليوم إلى الدورة، ولا أريد الدروس الخاصة، لا أريد الجامعة، سأدخل إلى أي معهد، المعهد الفندقي يقبل كل الناجحين في الشهادة الثانوية، مهما كان مجموعهم.
. أنا اختنقت من ربطة العنق.
ـ ويريد منا زيارة صديقه الفقير ليقول لنا: انظروا، حالنا أحسن من حال غيرنا.

ـ والأنكى من هذا كله، يريد إلباسنا بدلات رسمية، يريد جعلنا في عمر الشيوخ والعجائز.
ـ لا، أنت لا تعرف، يريد رؤيتنا مثل الوزراء والمسؤولين والأغنياء.
ـ المشكلة، أبونا ما درس، ولا حصل أي شهادة، عنده عقدة نقص، يريد منا التعويض عن النقص.
ـ لأ، المشكلة، كلف نفسه، واستدان واشترى ثلاث زجاجات بروت، عطره المفضل، لا يعرف، هذا العطر هو عطر أيام زمان، عطر العجائز، اليوم عطر الشباب فور إيفر أو أمازون.
ـ والأنكى من هذا كله، أساميا، كلها من عهد عاد وثمود، اسمعوا: صفي الدين، مجد الدين.
ـ يا جماعة، لا يجوز أن نلوم أهالينا على أساميا، أما سمعتم قول فيروز؟
. وماذا قالت؟
مالك يقلد فيروز بصوت أجش عريض:
أساميا
شو تعبوا فيها أهالينا
حتى لا قوها
أساميا
يرد صفي الدين:
. والله ما تعبوا، هم لاقوها جاهزة، اسمك أنت وحدك، يا مالك، تعبوا فيه.
. كان من الواجب تسميتك مالك الدين.
. أنا سأغير غداً اسمي.
. أقترح عليك اجعله: سيف الدين.

. أنا فور رجوعي إلى البيت سألبس الجينز وأخلع هذا الحذاء وأنتعل حذاء الرياضة.
. أنا توقعت خلعك لاسمك.
. وأنا سأحلف ألف يمين، سأعلق البدلة في الخزانة، وأقول لها: هنا أودعتك، لن تخرجي منها إلا بعد عشرين سنة، لما يصير عمري أربعين، أو في يوم زفافي.
. أنا حتى في يوم زفافي سألبس الجينز.
ـ لأ، أنا سأظل في البدلة، وسألعب فيها كرة قدم، حتى تتمزق.
ـ الحقيقة كما قال إخوة يوسف: إن أبانا لفي ضلال مبين.
. صدق الله العظيم.
وتنفجر القهقهات.

*

السائق العجوز ينظر إليهم في المرآة. يتنبهون إليه، يسأله كبيرهم:
. هل عندك أولاد ياعم؟
يرد:
ـ لو كان عندي أولاد ما رأيتني وأنا في هذا العمر أعمل سائق أجرة.
يعلق أوسطهم:
ـ يعني لو كان عندك أولاد كنت جعلتهم أجراء يعملون على السيارة، وكنت أنت نمت طول الليل والنهار.
وتعلو القهقات.

السائق العجوز يعلق:
ـ لا يا أولادي، صدقوني، لو كان عندي أولاد كنت خدمتهم أنا بعيوني، كنت سأعمل سائق سيارة أجرة، حتى يدرسوا ويدخلوا الجامعة، كل حلمي ولد يدخل الجامعة ويدرس الطب، ليعالجني في شيخوختي.
يعلق أصغرهم:
. هذا هو حلم كل الآباء، كل أب يريد من ابنه دراسة الطب، كل ولد طبيب.
يعلق أكبرهم:
. بعد عشر سنين لن نجد غير الأطباء، لن نجد أي عامل أو سائق سيارة أجرة.
. ستجد مالك يخدم في فندق.
ـ ليس من العيب الخدمة في فندق، هذه مهنة لها علم وأصول، وتحتاج إلى شهادات.
. صاحب فنادق هيلتون كان أجير في أحد الفنادق، بعدها صار صاحب أكبر سلسلة فنادق في العالم.
ـ وأخي مالك سصبح صاحب سلسلة مالك للفنادق، أنا من الآن أقترح عليك اسم الفندق، فندق مالك، بل فنادق مالك، اسم ماسبقك أحد إليه.
وتنفجر القهقهات.
يقطعها رنين الهاتف الجوال.

*

ويرد الصوت الغريب بهدوء:
ـ قلت لك لا تقلق، اهدأ، أرجوك، أبوك في المستشفى، كان يسير على الرصيف، فجأة وقع،

أصـابته جلطـة، أنـا حملتـه بنفسـي، وضـعه الآن مستقر.

يصيح:

. أين هو؟

. في مستشفى الأمل.

*

يطلب كبيرهم من السائق التوجه إلى مشفى الأمل.

أصغرهم يهمس:

. حرمنا من البيتزا والكولا.

. قل: حرمنا من العيد كله.

السائق ينظر إليهم في المرآة، يعلِّق:

. تفاءلوا بالخير، ياشباب، أبوكم في المستشفى لا في المشرحة، لا سمح الله.

ويأتيه الجواب:

. أنت لا تعرف، هذه ثالث جلطة.

ينظر إليهم في المرآة ثانية، تسقط من عينه دمعة، ثم يبتسم.

سقوط مع الموسيقا الهادئة

قال الحجر الأبيض: أنا حجر أبيض، نظيف، لا أحمل رقماً، ولا إشارة، ولا علامة، أنا أقف في أول الصف، قد يظن أحدهم أني أقف في آخره، ولكن لا، أنا أقف في أوله، فليس ورائي أي حجر، كل الأحجار تصطف أمامي، قد تسقط كلها، ولكن لن أسقط أنا.

قال حجر يقف في المنتصف، أنا في الوسط، مكاني ثابت، في نقطة العدل والإنصاف، قد تسقط الأحجار كلها من ورائي، قد تسقط الحجارة كلها من أمامي، ولكن أنا ثابت، مكاني مختلف كلياً، قد تسقط كل الحجارة، لكن، لن أسقط أنا.

قال حجر يقف في المقدمة: أحسّ دبيب حركة، كأن الأرض ترتج، أسمع صوت سقوط، الأحجار بدأت تسقط، ورائي ستة آلاف حجر، هكذا سمعتهم يقولون، حتماً لن أسقط أنا، إلى أن تصل حركة السقوط إلى موقعي تكون قد ضعفت، قد أهتز، ولكن لن أسقط أنا.

قال حجر آخر، لا أعرف بالضبط ماهو موقعي بين رتل الأحجار الطويل، ولكنني أحمل ست نقاط في نصفي الأعلى وست نقاط في نصفي الأسفل، قيمتي

أكثر الأحجار قيمة وأعلاها، لذلك قد تسقط كل الأحجار، ولكن من المؤكد أني لن أسقط أنا.
تلفّت حجر، فوجد الحجارة كلّها حمراء القفا، بيضاء الوجه، قال في نفسه، لا شك في أني أيضاً أحمر القفا، أبيض الوجه، مثل باقي الحجارة، يجب أن أبحث لنفسي عن لون مختلف لوجهي أو قفاي، كي لا أسقط أنا.
أحس حجر بوقوفه منتصباً، شعر بنشوة، رفع رأسه عالياً وهتف: شكراً لليد التي جعلتني أقف منتصباً، هذه أول مرة أقف فيها منتصباً، طوال عمري أنام منبطحاً على وجهي أو قفاي، وأحياناً على جنبي، أحس أني شامخ قوي عملاق، سأظل واقفاً أبداً، لن أسقط بعد اليوم، كل الحجارة واقفة مثلي، ولكن أحس أني أنا وحدي الأعلى، لن أسقط بعد اليوم، لن أسقط أنا.
حجر أحسّ بدبيب الحركة، قرَّر الصمود، شدّ ظهره، تشبث بالأرض، نفخ صدره، رفع رأسه، هتف بصوت عال جداً: لن أسقط أنا، لن أسقط أنا.
التفت حجر إلى حجر وراءه، هتف به صائحاً: ابتعد عني، لا ترم بثقلك عليّ، تماسك، اسقط أنت بعيداً عني، اسقط وحدك، لا أريد أن أسقط، لن أسقط أنا.
صرخ حجر بحجر يقف أمامه: لماذا تهتز وتتداعى؟، اثبت، كن قوياً، أنا أحاول الاستناد عليك، لا أكثر، لا تكن سبب سقوطي، أنا فقط أستند عليك، أنا لن أسقط، لن أسقط أنا.

*

فـي بهـو فنـدق فخـم، وعلـى بـلاط أملـس نـاعم، تسـاقطت حجـارة الـدومينو كلهـا علـى وقـع موسـيقا هادئـة، وفـي نغـم نـاعم، وفـي حركـات لولبيـة تتثنـى وتتمايــل، تحــت أعــين آلاف المتفــرجين، وأمــام المصـورين مـن مئـات وكـالات الأنبـاء، وهـي تنقـل السقوط الجميل لملايين المتابعين لشاشات التلفزة في أنحاء العالم.

عينان ....وحناجر

هو في الرتل ينتظر، ليس أمامه الآن سوى عجوز في السبعين من عمرها، المحاسب يمدّ الصك للعجوز من خلال الكوّة الزجاجية، توقّع عليه، يعدّ المبلغ، يناوله للعجوز، تتناوله بيد راعشة، تودعه حقيبة يدها، يتنبّه إلى حركة من يد المحاسب، يلمحه وهو يمرّر قلمه على سطح الصك، يلتفت إلى العجوز يسألها:

"كم قبضت ياخالة؟"

تنظر إليه مستنكرة، يكرِّر السؤال، تجيبه بصوت متهدج:

"خمسة آلاف"

يلتفت على الفور إلى المحاسب، يقول له:

" هات ناولني الصك"

المحاسب يرد عليه:

"الصك ذهب في الصندوق، ولا يمكن استرجاعه"

يتنبّه إلى العجوز وهي تهمّ بالمضي، يمسك بها من يدها، يقول لها:

"لا تذهبي، هذا المحاسب زوَّر الصك، جعل الخمسة خمسين"

العجوز تتكلم وهي تحاول جهدها رفع صوتها:

"أنت نصاب تريد التحايل على هذا المحاسب، هو ثقة، أنا أتعامل معه منذ زمن بعيد".
المحاسب يعلو صوته محتجّاً:
"هل سمعت؟ أنا ثقة، اسأل كل الزبائن الواقفين وراءك"
يلتفت تأتيه أصوات مختلفة متنوعة:
"هذا المحاسب ثقة"
"هو أمين"
"نحن نعرفه"
"أنا أتعامل معه منذ عشر سنين"
المحاسب يصيح:
"هذا الرجل محتال اقبضوا عليه"
تتزايد دقات قلبه تتسارع ترتعش أطرافه يقفز الدم إلى وجهه تحمر عيناه يحدِّق في المحاسب يركز أنظاره في عنقه وينفجر الدم من حنجرته.
يدير ظهره ويمضي تاركاً الزبائن مشغولين بإسعاف المحاسب.
في صباح اليوم التالي تعلن الصحف عن وفاة محاسب في المصرف بسبب انفجار في حنجرته وتكشف عن اختلاسه الملايين وتشير إلى رجل طويل نسبياً نحيل يرتدي بدلة زرقاء أشقر الشعر حسن المظهر يشك الناس في أنه هو سبب الانفجار في حنجرته ولكن لا يملكون أي دليل.

*

في مقهى على الرصيف، يقعد وحده إلى المائدة يستمتع بفنجان قهوة، في صباح ربيعي منعش، وبين

يديه جريدة، المقهى يغص بالرواد، الرصيف عريض، والحركة في الشارع أمامه نشطة، السيارات تروح وتجيء في إيقاع حالم، وهو يستمتع بدفء شمس الربيع.
إلى مائدة غير بعيدة عنه صبية وشاب يحتسيان معاً القهوة، الصبية تنهض، تمضي إلى الداخل، لا يمر غير غير قليل من الوقت، صوت استغاثة يعلو، ينهض الشاب متردداً، يسبقه إلى الحمامات الخاصة بالسيدات، يقتحم الباب ويدخل، رجل ضخم يسند الصبية إلى الجدار، وهو يحاول النيل منها، تتسارع دقات قلبه، يغلي الدم في عروقه، تحمر حدقتاه، يمسك بالرجل من قفاه، يشده إليه، يحدق في عنقه الغليظة القصيرة، الدم ينفر من حنجرته، يتلوى بين يديه ويسقط على الأرض، يغادر المقهى ويمضي.
في اليوم التالي تعلن الصحف عن وفاة رجل بدين قصير القامة في حمامات السيدات في ظروف غامضة، الدم ينزف من حنجرته المنفجرة، ولا أثر لجرح فيها ولا سكين، وقد أكدت فتاة كانت في الحمامات أن الرجل البدين حاول الاعتداء عليها، شهود تحدثوا عن رجل طويل، نحيل، دخل الحمامات، ثم غادرها، ويشك في أنه وراء انفجار حنجرة الرجل، ولكنه لم يترك أي دليل.

*

يهاجر إلى الريف، يستلقي في ظل شجرة، الظلال تمنحه برودة منعشة، الشمس تتخلل الأوراق، فتصله أشعتها هادئة ناعمة لا إزعاج فيها، الأغصان تتدلى

فوقه مثقلة بالتفاح الأحمر الشهي، التراب تحته ندي ناعم، يحس بالجذور وهي تتشرب الغذاء، يحس بالنسغ وهو يجري في الأغصان، يلتقط تفاحة دانية، العصارة تذوب في فمه كالشهد، عصفور صغير يحط على عضن فوقه، ينقر تفاحة، يحسو العصارة الحلوة منها.

سرب من الغزلان يمر أمامه، يتهادى بمشيته في رفق ولين، أطلاؤه تمشي الهوينى بين أماتها، لبوة تتسلل بهدوء، لا تند عنها نأمة، فجأة تنقض على غزالة، يفر القطيع، الغزالة تعدو، تتقافز، تتعثر، تسقط في حفرة، هي بقايا فخ حفره صياد، اللبوة، تنقض عليها، ثم تخرج من الحفرة وهي تحمل الغزالة بين أنيابها، تمضي بهدوء نحو جرائها، الجراء تعدو نحوها.

يشيح بوجهه عن المشهد، يترك الصغار تتناول وجبتها، يحار في أمره، يعود إلى المدينة.

*

أمام القاضي يمثُل الرجل، القاضي يوجه إليه التهمة:

"أنت مدان بالاعتداء على صبية في الحمام وابتزاز المحاسب في المصرف"

الرجل يضحك، يضحك طويلاً ، ثم يسأل:

"مدان؟ وما حكمي؟"

"حكمك الإعدام"

الرجل يضحك ثانية، يقهقه، يسأل:

"وماذا عن موت الرجلين؟، هل أنا متهم بهما؟"

القاضي يسأل مدهوشاً:

"عن أي رجلين تتحدث؟"
" المحاسب الذي زوّر الشيك، والبدين الذي حاول الاعتداء على الفتاة؟"
القاضي ينظر في سقف المحكمة، ثم يجيبه:
"حتى الآن لا أعرف أي شيء عن هذه القضية، وأنت لا علاقة لك بها"
الرجل الطويل النحيل يتكلم:
"هذا ممتاز يمكن الآن إطلاق سراحي"
"لا، هل نسيت حكم الإعدام"
الرجل يضحك، يقهقه، يسأل:
"هل هنا في القاعة محام يدافع عني؟ وهل هناك شهود؟ هل هناك صحافة؟"
القاضي يرد:
"لا، أنا وحدي القاضي والمحامي والشهود، وأنا الصحافة"
يلتفت، يشير إلى حشود تملأ القاعة، يسأل:
"وهؤلاء الناس؟"
"هؤلاء هنا دائماً للفرجة والتسلية".
احمرّت حدقتاه غلى الدم في عروقه زادت دقات قلبه وتسارعت، نظر في عنق القاضي، وانفجر الدم في حنجرته.
حناجر في قاعة المحكمة تصيح:"قاتل"، "مجرم"، "شرير"، "شيطان"،"ساحر".
الأصوات تعالت، ازدادت، غلى الدم في عروقه، تسارعت دقات قلبه، همَّ بالالتفات إليهم، ولكن قبل أن تقع عيناه عليهم، أشاح بوجهه عنهم، توجَّه إلى

إحدى النوافذ المغلقة، مسح الغبار عن زجاجها، نظر إلى صورته المنعكسة في الزجاج، حدّق في عينيه، وانفجر الدم من حدقتيه، سقط على الأرض.

*

ثمة أصوات قليلة لا تكاد تغادر الحناجر تغمغم:
"نحن بحاجة إلى مثل عينيه".

ماذا أختار؟!

يتربع على كرسيه وراء منضدة فخمة، إلى جواره ثلاثة هواتف أرضية، وهاتفان نقالان، وراءه ثلاث لوحات في إطارات مذهبة، [الملك لله]، [العدل أساس الملك]، [هذا من فضل ربي]، ألقيت عليه التحية، فسأل فوراً:"وحدك؟"، أجبته: "نعم"، فسأل:"ليس عندي غرفة مفردة، كل الغرف عندي بسريرين، تدفع أجرة الغرفة كاملة خمسة آلاف ليرة"، أشرت بالموافقة، فأضاف:"من غير فطور، ومن غير شاي أو قهوة، ومن غير مناشف ولا صابون، والدفع سلفاً والمغادرة قبل التاسعة صباحاً، وليس عندي مكان للأمانات، وأي شيء مفقود أو ممنوع على مسؤوليتك، ولا زيارات، ولا إدخال للطعام"، قلت له:"أنا أستاذ في الجامعة، وكل أسبوع سأنزل ليلة"، علق:"لا يهمني، الزبون هو زبون، وزير أو شحاذ، وإذا نمت ليلة أو عشر ليال، الأجرة هي نفسها"، قلت له: "موافق، ولكن أريد أن يبقى الحجز ثابتاً باسمي كل يوم اثنين"، أجاب:"لا أستطيع ضمان ذلك، اتصل بالهاتف قبل يومين لتأكيد الحجز، وإذا ما جئت حاسبناك أجرة ليلة كاملة"، قلت له موافق، ناولته بطاقة الهوية الشخصية، وأنا أعيد قراءة اللوحات الثلاث فوق رأسه، ناولني المفتاح وهو يقول:" الدور

الثالث، المصعد متعطل، الغرفة ١٣"، سألني:" هل أوقظك عند صلاة الفجر؟ عندنا هنا غرفة صغيرة، مخصصة للصلاة"، قلت له:"أنا في العادة أستيقظ قبل الأذان بربع ساعة، وإذا لم أستيقظ فأيقظني".

أمضيت على هذه الحال نحو السنة، المعاملة هي نفسها، لا بد من الاتصال بالهاتف قبل يومين لتثبيت الحجز، لا بد من تسليم الهوية والدفع سلفاً، لا بد من المغادرة قبل التاسعة، وإن كنت بطبيعة الحال أغادر في السابعة والنصف، مرة طلبت منه ترك حقيبتي ووعدت بأخذها عند مغادرة البلد في الساعة الثالثة فاعتذر، في كل مرة كان يعطيني غرفة مختلفة، وددت لو أنزل دائماً في الغرفة نفسها، فقال: "هذا غير ممكن"، كان هو يؤمنا دائماً في الصلاة، ويدعو بعد الصلاة بصوت خاشع.

الأسبوع الماضي سألني أحد الزملاء عن الفندق الذي أنزل فيه، فدهش، وقال:"فندق قديم، عمره مئة عام، أعرف صاحبه، معاملته جافة، ورثه عن أبيه، وأجرته عالية، أنا سأدلك على فندق آخر، حديث، حديث جداً، يقع خلفه تماماً، في الشارع الموازي، ولكن فيه مشكلة واحدة"، سألته ماهي، فأجاب: "جرِّبه ليلة واحدة، وبعد ذلك لك الخيار، أن تستمر أو تعود إلى الفندق الأول".

فور دخولي إلى الفندق استقبلني مديره بالترحيب، وطلب من العامل تناول الحقيبة، قدَّم لي فنجان قهوة مرة، وهو يقول:"طبعاً تريد غرفة مفردة، حاضر، تريدها مطلة على الشارع أو على الحديقة الخلفية،

الماء الساخن متوفر دائماً ومناشف نظيفة وصابون وإفطار في الصباح، وهنا في البهو فنجان قهوة ضيافة، والمغادرة في الساعة الثانية عشرة، والأجرة خمسة آلاف ليرة".

وجهه أليف، رأيته من قبل، لا أعرف أين، أحاول التذكر، لا أستطيع.

ملأ الدفتر أمامه بالبيانات المسجلة في بطاقة الهوية الشخصية، أعادها فوراً إلي، وهو يقول: البيانات محفوظة عندنا، في المرة القادمة أهلاً بك، حتى ولو من غير بطاقة الهوية"، ناولني المفتاح، وهو يقول:"تفضل، بما أن هذه أول مرة تنزل في الفندق، ستصلك وجبة عشاء ضيافة، ويمكنك تناول أي وجبة بسعر مخفض، عندنا مطعم مخصص للزبائن في الدور التاسع، طبعاً الإفطار مجاني، والمصعد هنا أمامك، وهو شغال دائماً".

إلى جوار المصعد ينهض تمثال أفروديت، في المصعد دخل معي عامل الفندق، في الجدارين المتقابلين في المصعد إعلان كبير عن سهرة غنائية في ملهى الفندق، وفي الإعلان صورة مطربة وصور راقصات، وقف المصعد في الدور الرابع، دخلت امرأة في الأربعين، غمرت المصعد بعطرها الفاضح، حيت بلهجة مائعة، داعبت ذقن العامل، وهي تقول:"كيف الهمَّة الليلة؟"، أجابها:"بحسب الزبائن"، غادرتنا في الدور الخامس، في الدور السادس عبرت الممر مع العامل، على الجدران تتكرَّر الدعاية نفسها للسهر في ملهى الفندق، مررت بغرفة تتسرب منها

ضحكات عالية، في نهاية الممر، قال لي العامل وهو يفتح باب الغرفة:"إذا أردت السهر الليلة في الملهى فالزبائن لهم حسم خاص، ومن الممكن أن أحجز لك مائدة خاصة من الآن"، شكرته وأنا أضع في يده أعطية بسيطة.

نمت تلك الليلة، صليت الفجر في غرفتي، غادرت في الصباح من غير أن أتناول طعام الإفطار.

رحب بي مدير الفندق، وهو يقول: "اعتبر هذه الليلة ضيافة، هذه أول مرة تنزل فيها عندنا، عرفت أنك كنت تنام في فندق الحاج رجب كل أسبوع، هل أُبقِي لك الحجز في الغرفة نفسها،الأسبوع القادم، أم تريد غرفة غيرها؟ ستجد دائماً مناشف وشراشف نظيفة خاصة بك، مع وجبة عشاء".

شكرته، قلت له"سأتصل بك بالهاتف"

سأل مدهوشاً:"هل حصل أي تقصير، أو إزعاج".

قلت له: "لا، لم يحصل أبداً".

ناولني بطاقة الفندق، وهو يقول:"أهلاً بك في أي وقت"، وأبى إلا أن يوصلني إلى باب الفندق، وهو يقول:"استاذ، لا تؤاخذني أرجوك، إذا جئت إلى فندقي أهلاً وسهلاً وإذا ذهبت إلى فندق الحاج رجب فأهلاً وسهلاً، ما في أي ولا عتب، الحاج رجب أخي، وأنا وهو كنا معاً العام الماضي في الحج، وأدينا الفريضة معاً، ونحن شركاء، أنا كنت أراك تصلي الفجر في غرفة الجامع في فندقه، مرة كنت أنا إلى جوارك، ونحن نصلي وراء أخي، لعلك لا

تتذكر، على كل حال أنا لي زبائني وهو له زبائنه، وأهلاً وسهلاً بك، عندي أو عنده".

*

هل أعود إلى الفندق الأول؟ أم أستمر في هذا الفندق؟.

وهنا في مدينتي أصدقاء كثر، بعضهم مثل الحاج رجب صاحب الفندق الأول، وبعضهم الآخر مثل صاحب الفندق الثاني.

ماذا أفعل؟

طهر

قعد في المحل ينتظر.

*

شمس الخريف غابت، غبشة المساء بدأت تسيطر، المحل معتم، رفوفه قديمة، خزائنه الخشبية مهترئة، البضائع مصفوفة على الرفوف في أكداس، الزجاج في الواجهة مغبرّ، يعلوه السخام من الداخل ومن الخارج، ثلاث دمى عادية جداً لا رأس لها تقف في صف واحد في جام الواجهة، ترتدي ثياباً لم تبدل منذ أكثر من ثلاثة أشهر، المحل يبدو مهملاً أو مهجوراً.
قال له:
. لا تتوتر، حافظ على هدوئك، هي دقائق وتمر.

*

اعتاد أن يشرب عنده كل يوم كأس شاي، وهو عائد إلى البيت، راجعاً من وظيفته، عند الثالثة والنصف، يدعوه إليه، يلحّ عليه، يصب له كأس شاي.
. أنت متعب، وعائد من الوظيفة، اشرب هذه الكاس قبل صعودك إلى البيت.
يضع له حبة سكرين، ويقول له: "اشرب".
ليس الرجل مصاباً بالسكري، ولكن صاحب المحل استطاع إقناعه بالسكرين، فالسكر ضار، ويزيد من السمنة، ويتحول إلى شحوم.

أصبحت عنده عادة، لا بد من كأس الشاي بالسكرين، عند جاره صاحب المحل، قبل صعوده إلى البيت.

*

ويستيقظ من القيلولة في السادسة، ويسرع إلى عمله محاسباً في المعمل، ولا يرجع إلا في الواحدة بعد منتصف الليل، وينام من فوره، لينهض في السابعة، ليلتحق في الثامنة صباحاً بوظيفته.

ليس له من فسحة للتسلية والترويح عن النفس سوى جاره صاحب المحل، ويوماً بعد يوم أصبح صديقه الوحيد، محله مقابل العمارة التي تقع فيها شقته، شرفته مطلة على المحل، نوافذ درج العمارة تطل على المحل.

صاحب المحل يستطيع وهو قاعد في محله أن يرى الصاعدين والنازلين على الدرج، يعرف سكان العمارة فرداً فرداً، يعرف حتى زوارهم وأقاربهم.

*

ذات يوم سأله:

. هل تشتري زوجتي من محلك تلك القمصان الوردية والسوداء المزركشة؟

لم يجب، ألحّ عليه، لم يجب، لف ودار. في يوم آخر أعاد السؤال. أعاده مرات ومرات، ذات يوم أخبره بالحقيقة.

*

استيقظ كعادته في السادسة مساء، لم يذهب إلى عمله في المعمل، دخل إلى المحل، قعد إلى جوار

صديقه، صاحب المحل، وأخذ ينتظر، صدره يعلو ويهبط، أنفاسه تتقطَّع، صب له صاحب المحل الشاي.
. لم تضع حبة السكرين في الكأس؟
يجيبه:
. الشاي محلَّى، لا ضرورة للسكرين، هذه المرة.
. بل ضع فيه حبة، ضع فيه ملعقة سكر، أريد طاقة أكبر.
مرت دقائق حسبها ساعات، قال له وهو يتقلقل في موضعه من الكرسي:
ـ أضئ مصابيح المحل كلها، أريد أن أرى وجهه، أريد معرفته.
أضاء صاحب المحل مصباحاً واحداً.
فجأة وقف أمام المحل شاب، ألقى نظرة على الواجهة الزجاجية للمحل، ثم دخل، شاب نحيل، أشقر، قصير القامة نسبياً، في العشرين من عمره، قلق، يتلفّت حوله، توجّه على الفور بالسؤال من غير أن يثبت عينيه على أي من الرجلين:
. أريد هدية مناسبة.
صوت الشاب مرتعش، عيناه زائغتان لا تركِّزان على شيء، صمت، فاجأه وجود رجل آخر في المحل، هو يعرف صاحب المحل، ولكن من هذا الرجل إلى جواره؟.
اصفرّ وجه الرجل، ارتعشت يداه، زادت دقات قلبه، تسارعت، أشار إلى صاحب المحل، قال:
. هو صاحب المحل، لا أنا.

نهض صاحب المحل، بصوت بارد سأله:
. هدية للأم أم للخطيبة؟.
شعر الشاب باستياء، لماذا هذا السؤال؟ هل تريد التمويه على الرجل؟ ألم نتفق من قبل؟ ومن هذا الرجل القاعد إلى جوارك في المحل؟ هل تريد أن تفضحني؟ لا أعرف ماذا سأقول؟ أحس كأن الخطة كلها قد أحبطت، همس مضطرباً:
. لسيدة.
وأضاف في خوف وقلق:
. لأم.
ومد صاحب المحل يده إلى الخزانة، سحب قميصاً نسائياً داخلياً، هم بفتحه، قال له الشاب مقاطعاً:
. لا تفتحه، ذوقك جميل.
تكلم صاحب المحل:
. مقاسه يناسب السيدات في كل الأعمار.
ساءه التعليق، أزعجته هذه التفاصيل، ناوله قطعة نقدية من فئة ألف ليرة من غير أن يسأله عن السعر.
ارتعشت أنامل الرجل، ارتجفت ركبتاه، هم بالنهوض، ولكن صديقه صاحب المحل ضغط على ركبته بيده، ليجلس، زادت دقات قلبه، تسارعت، قفز الدم إلى وجهه، صك على أسنانه.

*

هذا هو إذن مصدر مثل هذه القمصان؟ وأنا أدهش لرؤيتها في خزانتك، وفي كل مرة أسأل أسمع جواباً:"هذا هدية من أمي؟"، "وهذا؟"، "هذا هدية من

أختي"، والأنكى من ذلك عندما تقول:"هذا اشتريته أنت لي العام الماضي، هل نسيت؟"، ثم ترتديه وتخطر به أمامك، والنعاس يغلبك، فتصمت وتخلد إلى النوم.

*

البائع يلف القميص بورق ملون، يلفه بهدوء.
الشاب يغادر، يهم الرجل بالنهوض، يقول له صاحب المحل:
. قلت لك انتظر.
يصيح به:
. هات، ناولني بسرعة.
يقول له ببرود وهو يضحك:
. لا فائدة الآن، انتظر حتى ينزل، كلها عشر دقائق وتحقق رغبتك، لتثبت الأمر عليه وعليها، ليكون الحق معك.
الرجل يتناول كأس الشاي بيد راعشة، يكرعها كلّها دفعة واحدة. يهز قدميه الاثنتين، جسده كله يهتز، يصيح:
. هات ناولني، ماعدت أطيق.
صاحب المحل يهمس:
ـ هاهو ينزل على الدرج، أنا أراه من نوافذ الدرج، خذ، بسرعة، الآن تحقق حلمك، ثبت قلبك، ثبت يدك، لا تتنفس، في الصدر مباشرة، ثلاث رصاصات لا رصاصة واحدة، الرأس قد لا تصيبه، صعب إصابة الرأس.

يفتح صاحب المحل درج المكتب، يمسك ماسورة المسدس وهو ملفوف بمنديل، يناوله إياه.
ـ ركز بشكل جيد، ما فيه غير ثلاث رصاصات، أطلقها كلها.

*

في البدء لم يصدق ما رواه له صاحب المحل، شك فيه، هم بالإمساك بعنقه وخنقه، أقسم صاحب المحل أغلظ الأيمان أنه لا علاقة له بالموضوع، وأنه هو نفسه لم يتنبه للأمر، ولكن لفت نظره هذا الشاب بالذات، أقسم له أن هذا الشاب كان يتردد عليها في الشهر الأخير في كل يوم تقريباً، مساء بين السادسة والسابعة، بعد ذهابه إلى المعمل، وأنه من قبل كان يتردد عليها بعض الرجال، والذي نبهه على ذلك أنهم كانوا يشترون الهدايا من محله. حار في أمره، سأله:
ـ أنت صديقي، وبمقام أخي، أريد أن تصدقني، وبحسب خبرتك، أنت أكبر مني، في رأيك، ما هو سبب خيانتها لي؟ صارحني؟
ويرد عليه صاحب المحل ببرود:
. والله يا أخي لا أعرف، هذا أمر يتعلق بك وبها، أنا لا أعرف ما الذي يحصل بينك وبينها.
يصمت الرجل، ثم يسأله وهو يرتجف:
ـ لا بأس، ما هي أسباب تعاطي بعض النساء مثل هذه الأمور؟
ـ هناك أسباب كثيرة، كلها غير مبررة وغير مقنعة، ومع ذلك كل حالة لها أسبابها.

ويبوح الرجل لصديقه صاحب المحل بكثير من جوانب حياته مع زوجته، بل يروي له كارهاً بعض التفاصيل الخاصة، وصديقه صاحب المحل يصغي بشغف ويصب من الشاي ويكرع، بل يسأله مستمتعاً عن بعض التفاصيل.

ثم يسأل الرجل صديقه صاحب المحل:

. والحل؟

ولا يجيبه صاحب المحل بشيء، فيقول له:

. سأقتلها، أرجوك، ساعدني على شراء مسدس.

ويعلق صاحب المحل:

. اقتل هذا الشاب، هي لا ذنب لها، هو السبب.

*

يحمل المسدس ويسرع باجتياز الشارع، يدخل المبنى. في الممر الواصل بين مدخل البناء وبداية الدرج يراه أمامه، يصيح به وهو يشهر مسدسه:

. خذ يا كلب، أنا زوجها.

ويطلق رصاصتين، يطلقهما صوب الصدر، في القلب. ويسقط الشاب، والدم ينزف من صدره.

عيناه مفتوحتان على أقصاهما، الدموع تنحدر منهما.

وهو يضغط على الزناد سمع صوته الراعش يقول:

. والله صدقني أنا بريء....

ينتفض جسده، يميل رأسه نحو اليمين، عيناه ماتزالان مفتوحتين تحدقان فيه، لا يمكن أن ينسى نظرته، الدم يسيل من زاوية فمه.

*

ما يزال في المسدس رصاصة.

يهم بإطلاقها على الشاب، ولكنه يقرر شيئاً آخر، يشيح بوجهه عن عيني الشاب القتيل، يندفع في الممر الطويل، يتجه نحو الدرج، يهمُّ بالصعود إلى شقته، يفاجأ بعدد من الرجال والنساء يهبطون على الدرج، يذعر، يقف مرتبكاً، لا يستطيع الصعود، يصيح صوت من بين الحشد:

. والله الشاب بريء، ما فعل أي شيء.

يتفرس في مصدر الصوت، يرى وجه زوجته، يصوِّب المسدس نحوها، يد تمسك بمعصمه، الرصاصة تنطلق، لتحدث حفرة في السقف.

يصيح والمسدس بيده، والذعر يملأ عينيه:

ـ أنا قتلته، أنا سأسلم نفسي للشرطة، لا أحد يقترب مني.

*

فوراً يتم إلقاء القبض على صاحب المحل لبيع الألبسة النسائية، كما يتم إلقاء القبض على الزوجة، لأن الرجل اعترف بأن صاحب محل الألبسة النسائية هو الذي زوده بالمسدس، وأنه هو الذي أخبره أن زوجته على موعد مع زيارة ذلك الشاب.

*

لماذا لم يضع حبة السكرين هذه المرة في الكأس؟، هذه المرة طعمها عادي، لشايه دائماً طعم مختلف؟ مميز؟ ولكن طعمه هذه المرة عادي. هل كان يضع فيه مادة مهدئة؟ هل كان يضع فيه ما يجعله زاهداً في الجنس، ما إن يرجع إلى البيت بعد احتساء

الشاي حتى ينال منه النعاس، فيدير ظهره لزوجته وينام.

*

القمصان الداخلية هي مفتاح السر، عرف الآن كل شيء، يشتري الزبون القميص من المحل، ثم يصعد إليها في غيابه، "سيدتي، هذا القميص هدية لك، أرجوك، تفضلي بارتدائه"، ثم ينالها، كان يجب أن أنال منك، يابائع القمصان، أيها الصديق العزيز، يا صاحب كأس الشاي، قبل أن أنال من ذلك الشاب.
وأبقيت الرصاصة لقتلها، لا أعرف أي يد أمسكت بيدي، وجعلت الرصاصة تضرب السقف.

*

أمام المحقق اعترفت المرأة: صاحب المحل هو الذي ورّطها، لم يشأ المحقق أن يسألها عن تفاصيل الورطة كيف كانت، وهي لم تنف مسؤوليتها، أقرت بذنبها، ثم أكدت أن الأمر كان في الأشهر الأربعة الماضية فقط، وأن صاحب المحل هو الذي كان يجلب لها الرجال، مستغلاً موقعه أمام العمارة، ومستفيداً من صداقة زوجها وثقته به، وأكدت أن صاحب المحل هو الذي كان يقبض من الرجال، ولا تحصل منه إلا على جزء بسيط، عدا ما قد يجود به بعضهم فوق المبلغ المتفق عليه مع صاحب المحل، وأكدت أنها لا تعرف اسم أي من الرجال الذين ترددوا عليها، ولا مناصبهم ولا أعمالهم، وأنه لم يكن فيهم شخص محدد، كانوا جميعاً من العابرين، وأقسمت أن هذه هي الزيارة الأولى لهذا الشاب وأنها

لا تعرفه من قبل، وأنه لم يكن يتردد عليها كما ادعى زوجها أو كما زعم صاحب المحل، بل اعترفت بشيء آخر يتعلق بالشاب نفسه.

*

وأمام المحقق أيضاً اعترف صاحب المحل بكل شيء، بعد أن قرأ عليه المحقق معظم التفاصيل في محضر التحقيق مع المرأة.

هو الذي أخبر زوجها، هو الذي زوده بالمسدس، وأعلمه بموعد زيارة الشاب، واعترف أن هذه هي الزيارة الأولى للشاب، ولم يكن الشاب في الحقيقة يتردد عليها، بخلاف ما قاله للرجل، وبخلاف ما أقسم عليه أمامه من أيمان، واعترف بأن دافعه إلى توريط الزوج بقتل الشاب هو التخلص من الزوج، والزج به في السجن، واستمراره هو في ابتزازها، وبرر اختياره الشاب ليكون القتيل بكون الشاب عزباً لا زوجة عنده ولا ولد، فهو لا يريد لرجل صاحب أسرة أن يقتل، ثم اعترف بأن دافعه إلى اختيار الشاب هو الانتقام من الشاب لأنه أقوى جنسياً من كل الرجال، وحين سأله المحقق: "هل تقبل ذلك لزوجتك أو ابنتك؟"، أجابه وعيناه في الأرض:"أنا مطلق منذ خمس سنوات، زواجي لم يدم غير بضعة أشهر، أنا أعاني من السكري منذ كنت في الخامسة عشرة"، ثم اعترف بأنه كان يضع في كأس الشاي لزوجها حين يستضيفه في المحل حبوباً مهدئة كي لا يتمكن الزوج من ممارسة الجنس مع زوجته، وساعده على

ذلك كله ظروف عمل الزوج، زاعماً أنها حبوب السكرين.

*

أقسمت المرأة أمام المحقق أن الشاب لم يمارس معها الجنس، وطلبت إحالتها إلى الطبيب المختص. وثبت صدقها، كما ثبت ذلك بتشريح جثة الشاب.

وجاء في إفادتها الأخيرة أنها لمحت خاتماً في بنصر اليد اليمنى للشاب، فسألته، فأخبرها أن زفافه سيكون بعد يومين، وأن أصدقاءه نصحوا له بممارسة الجنس، قبل الزواج، حتى لا يظهر أمام عروسه بمظهر الغرّ، فنصحت له أن يحافظ على طهره لعروسه.

الرائحة الكريهة

في الطريق إلى عمله في الصباح، التقى جاره عائداً من الفرن، يحمل أرغفة الخبز، استوقفه:
. هل تعرف مصدر هذه الرائحة؟
. أي رائحة.
. هذه الرائحة الكريهة، ألا تشم؟!.
. لا أشم أي شيء.
تركه ومشى.
لا شك في أنه هو مصدر هذه الرائحة، هو أو أولاده أو بيته، لكنه لا يشم شيئاً، الرائحة سكنت أنفه، فهو لا يشمها.
في مدخل البناء، توقف هنيهة، تنفس بعمق، أبعد أرغفة الخبز عن أنفه، تشمَّم الرائحة، ثمة رائحة حقيقة، كيف لم أشمّها من قبل، لا شك في أن الجار سوف يحسب أني أنا مصدر الرائحة، يجب أن أترصده لدى عودته لأخبره أنني شممت الرائحة وأني لا أعرف مصدرها، يجب أن أنفيَ عن نفسي التهمة، بل سأقول له صراحة: "أنت وأولادك وبيتك مصدر هذه الرائحة".

*

قرعت إحدى الجارات الباب على جارتها، وسألتها:
. هل عرفت مصدر هذه الرائحة؟
قلبت الجارة شفتها، وردّت بتأفف وهي ترفع رأسها مستنكرة:

. وكيف سأعرف؟ أنا وزوجي وأولادي نستحم كل يوم بالصابون المعطّر، وكل يوم أمسح أرض الشقة، أنا لا أشم أي رائحة، ربما كانت من شقتك، أنت عندك رضيع، وللحفاضات دائماً رائحة.

ردت الجارة وهي تدير وجهها وتشير بيدها:

ـ حفاضات ابني أوربية معطّرة، وفي النهار أبدّلها خمس مرات، مثل أوقات الصلاة، وثلاث مرات في الليل، وعندي حاوية صغيرة مغلقة خاصة بالحفّاضات، انظري أنت في حاوية القمامة عندك.

*

ثمانية وعشرون رجلاً من سكان العمارة اجتمعوا في شقة الساكن في الدور الأول، وتحدّثوا طويلاً عن انتشار الرائحة الكريهة وحدّتها وإيذائها ولا سيما للأطفال، وطال الاجتماع، وتكرر الكلام، وتحول إلى ما يشبه التلميح والتعريض، وأحياناً اللمز والغمز، الساكن في الدور التاسع يلمّح إلى جاره الساكن فوقه في الدور العاشر، والساكن في الدور الثاني يكاد يحمل المسؤولية كلها للساكن في الدور الأول، لأنه لا يهتم بنظافة البلاليع والمجاري، وكاد اللقاء يتحول إلى خصام لولا أن أحد الجيران نهض داعياً الجميع إلى تأجيل النظر في موضوع الرائحة إلى لقاء قادم يكون في شقته، ووعد بدعوتهم إلى لقاء في وقت قريب، وخرج الرجال من اللقاء متوترين، كل منهم ينعى على الجار الآخر في سره ويتهمه بأن شقته هي مصدر الرائحة، ولكن الأيام والأشهر مرت ولم يدعهم إلى الاجتماع، ولم يفكر

أحد في الاجتماع، بل خشي كل منهم من مثل هذا الاجتماع، لأنهم أدركوا أنه لا جدوى منه، بل خافوا أن يتحول إلى خصام ونزاع.
والرائحة تزداد وتتفاقم.

*

تنبَّه أهل الحي إلى الرائحة، فهي في الواقع منتشرة في الحي كله، لا في هذه العمارة أو في تلك بل في الحي كله، ولكنهم لم يكونوا متنبهين لها، وكأنهم فوجئوا بها، ولا أحد يعرف مصدرها، ولا طبيعتها، هي كريهة كريهة، يضطر بعضهم إلى سد أنفه، ويضطر بعضهم الآخر إلى وضع كمامة، والكل يشكو ويتذمر ويضجر، وكل جار يتهم الآخر، وسكان هذه العمارة يتهمون تلك.
دعا مختار الحي إلى اجتماع عام في باحة إحدى المدارس، ضمَّ الاجتماع حشداً كبيراً من سكان الحي، من الرجال والنساء والأطفال، تنافس على ترؤس الاجتماع المختار ومدير المدرسة، لمن ستكون الكلمة الأولى؟، وبما أن المدير هو المضيف فقد كانت الكلمة الأولى له، فأكد حرصه على نظافة المدرسة، واهتمامه بنظافة الطلاب، وأنه وفر لهم الحمامات الحديثة ومياه الشرب النظيفة وزاد من عدد المستخدمين، ولكنه مع ذلك مثل سائر أهل الحي يشكو من انتشار الرائحة الكريهة حتى في غرف الدراسة، وأشار إلى أنه يشم وهو يلقي كلمته الرائحة الكريهة في الباحة نفسها حيث يجتمع الناس، فضج القوم، بعضهم يستنكر وبعضهم يسخر، ثم اعتلى

مختار الحي منبر الخطابة وأشار إلى أنه حريص على تسجيل حالات الولادة والوفاة والزواج والطلاق أولاً بأول من غير تأخير، وأنه يرفع إلى البلدية إحصاء شهرياً بتلك الوقائع، وأن سجلاته نظيفة وهي مجلدة بجلد النمر وأنه لا يحك فيها ولا يشطب ولم يحصل قط أن اندلق الحبر من محبرته على طاولته، وسمع صوت من وسط القوم يغمغم: "ولكن الرائحة الكريهة تملأ مكتبك"، وتلفّت القوم بعضهم إلى بعضهم الآخر كأنهم يبحثون عن صاحب الصوت، أو كأن كلاً منهم يريد أن يدلّ على أنه ليس هو صاحب الصوت، وعلق المختار على الفور: "إذا شم واحد منكم الرائحة الكريهة في مكتبي فهذا يعني أنها هي رائحته يحملها معه حيثما ذهب"، وغمغم القوم بين ساخر ومحتجّ.

ثم تقدم أستاذ اللغة العربية في المدرسة، وألقى قصيدة عن النظافة في خمسة وخمسين بيتاً، وسأل مدير المدرسة إذا كان في الحاضرين طبيب أو صيدلي، فلم يرد عليه أحد، وتردَّدت غمغمات تؤكد أن في الحي أطباء وصيادلة، لكن أحداً منهم لم يحضر الاجتماع لأنهم في عياداتهم وصيدلياتهم لا يهمهم أمر الحي ولا الرائحة، وسأل المدير إن كان في الحشد من يريد الكلام، فنهض أحدهم وتقدّم من المنصّة، وبدأ الكلام: "أنا رجل بسيط، ما درست الطب ولا الصيدلة، مهنتي تصنيع العطور، ولكن ما عندي رأسمال، اجمعوا لي ثمن دكان وأنبيق وثمن ورود وزهور، وأعدكم بتصنيع عطور تغطي هذه

الرائحة"، غمغم أحدهم:" العطور الأجنبية تملأ الأسواق، ماهذا الحل؟"، وضج القوم بالضحك والهتاف، ثم انفضوا ساخرين.

*

تنبّه سكان الحي الشرقي من المدينة إلى أن الرائحة منتشرة في حيهم منذ زمن، وأنهم لم يكونوا يحسون بها، وسرعان ما صحا سكان الحي الغربي على حقيقة الواقع، تبعهم سكان الحي الجنوبي، فالشمالي، وسرعان ما اكتشف الناس في المدينة، كل الناس، أن الرائحة منتشرة في المدينة كلها منذ زمن وأنهم لم يكونوا يحسون بها. أصبحت الرائحة الكريهة حديث القوم، في الشارع، في المقهى، في البيت، في العمل، في الصحافة، في الإذاعة، في التلفاز، الكل يتحدث عن انتشارها، وأضرارها، ومخاطرها، الكل يبحث عن مصدرها، آلاف الحكايات والقصص والطرائف والأمثال ابتدعت وتنوقلت، أصبحت الرائحة الكريهة الشغل الشاغل للمدينة، غدت أهم من الماء والخبز والكهرباء والمؤونة، أصبحت الرائحة الكريهة السمة المميزة للمدينة، من لا يشم الرائحة فليس منا، من لا يعترف بالرائحة فهو جاسوس وعميل، من ينكر وجود الرائحة فهو منافق ودجال، مصدر الرائحة خارجي، دولة مجاورة ترسلها إلينا، الرائحة الكريهة مؤامرة كونية على الوطن، مصدر الرائحة الكريهة الأقمار الاصطناعية التي ترسلها إلى الفضاء الدول الاستعمارية الكبرى، الرائحة الكريهة هي من غضب الرب، الرائحة

الكريهة هي عقاب إلهي، الصحافة اليومية تحمل كل يوم خبراً، زوايا في الجرائد والمجلات خصصت لموضوع الرائحة، ندوات تلفزيونية ومقابلات وبرامج خاصة بالرائحة الكريهة المنتشرة في المدينة، تألقت أقلام، وبرزت أسماء، واشتهرت أعلام، نجوم سينمائية وممثلون شغلوا الساحة وأصبحوا من مبعوثي النوايا الحسنة من أجل الرائحة الكريهة، رصدت جوائز ومسابقات في المدارس والجامعات لأفضل بحث عن الرائحة الكريهة، أنشئت جائزة سنوية لأفضل بحث عن مصدر الرائحة الكريهة، قدمت بحوث ودراسات لمعرفة مصدر الرائحة الكريهة وسبل علاجها والخلاص منها، نشر بعضها، ولكن بقي أكثرها محفوظاً طيَّ الملفات، شكلت جمعيات خاصة ورسمية من أجل الرائحة الكريهة، أرسلت وفود وبعثات ولجان تحقيق من كل دول العالم لمعرفة مصدر الرائحة الكريهة، تقدم بعض الباحثين من المدينة بنتائج بحوثهم، وطرحوا حلولاً فورية وعملية، تم التشكيك في جدواها، وكان لا بد من استقدام خبراء ومستشارين أجانب من مختلف دول العالم، دخلت البلاد كلها فرق وقوات طوارئ دولية لمعرفة مصدر الرائحة الكريهة.

*

وما تزال الرائحة الكريهة منتشرة، ولا أحد يعرف مصدرها.

القميص الأصفر والسترة

تعليقات على مشهد تلفزيوني

اجتمعت الأسرة كلها لمشاهدة الحلقة الجديدة من المسلسل الانتقادي الساخر: "مكتب السيد المدير"، الأسرة تضم الجد والجدة، والكهل العزب، وهو مدرس متقاعد، وأخوه المحامي، وزوجته الطبيبة، وابنهما الطالب الجامعي في كلية الهندسة، وابنتهما في الثانوية العامة.

مشهد ١

. ماهذا المكتب الفخم؟ أفخم من مكتب وزير.

ـ صدقت يا حماتي، أنا أعجبتني هذه الستائر الزرقاء، المفتوحة عن نافذة تطل على الحديقة، ليت لي مثلها في غرفة النوم.

. أنت، ايتها الزوجة المصون، مثل أمي، التفكير كله محصور في المظاهر.

. لا تظلم أمي ياأبي، المظاهر ضرورية، أنا ليت لي هذه المسمكة البلاستكية، اللاصقة بالجدرا، يا إلهي ما أجمل السمكات الذهبية، وهي تتهادى في الماء الصافي، هي أجمل عندي من التلفزيون.

ـ الحق معهم جميعاً يا أخي، إذا كان هذا مكتب سكرتير المدير، فكيف سيكون مكتب المدير؟

ـ صدقت ياولدي، من الضروري أن يكون مكتب السكرتير بهذه الفخامة، لأنه يستقبل فيه ضيوف المدير، والمدير شخصية اعتبارية.
ـ ولكن يا جدي هذه الفخامة زائدة عن الحد، وهي تكلف مبالغ كبيرة؟
. وهل تدفع أنت شيئاً يا ولدي؟ هذا من مال الدولة؟
. ولكن مال الدولة هو مالنا ياجدي، وأنا أسأل نفسي ماذا يفعل سكرتير المدير غير تنظيم أوقات المدير؟ وماذا يعمل المدير بحد ذاته؟ وسوف أسأل أبي: أنت أمضيت عمرك كله في التعليم، هل كانت غرفة المدرسين بهذه الفخامة؟
. سؤالك يا ابني ليس في محله على الإطلاق، المعلم آخر من يمكن التفكير في وضعه.
. اسمحوا لي بكلمة أنا أعجبت بالبدلة البيضاء التي يرتديها مدير المكتب، وبربطة عنقه الزرقاء، هو أنيق وصاحب ذوق، ويليق به مثل هذا المكتب.
ـ صدقت يا أختي، وأنا سأضيف هو طويل ووسيم وشعره لامع مسرح بعناية وكل بنت تتمناه.
. أنا ماقصدت هذا.
ـ كفاية تعليقات، يا أولاد، اتركونا نستمتع بالحلقة، لاحظوا معي هذا الرجل الذي فتح باب المكتب ودخل من غير استئذان.

المشهد ٢

. يا إلهي، هذا الرجل عديم الذوق، حتى صوته جاف وخشن، وقال: مرحبا، هل هذه تحية تليق بالمدير أو سكرتيره الخاص؟ ما معنى مرحباً؟

ـ ولاحظوا معي، كتفه اليمنى مائلة، وكتفه الأخرى مرتفعة.

ـ وانتبهوا إلى بنطلونه الجينز، وقميصه الأصفر الضيق.

. حتى كلامه، يقول للسكرتير: دخلني على المدير.

. أنا لو كنت في محل السكرتير لكنت قمت وضربته.

. لاحظوا تصرف السكرتير، كم هو ذكي، أدار ظهره إليه، والتفت بحركة هادئة فوق الكرسي البرام، وجعل وجهه إلى النافذة، وظهره لهذا المواطن السخيف.

ـ يا عمي، هذا مواطن مسكين، فقير، من حقه مراجعة المدير، ولو كان أعمى أو كسيح أو أعرج، هو في النهاية مواطن.

ـ يا إلهي أنا أعجبني هذا الكرسي البرام، واسع، عريض، مسنده عال، حتى مسند الرأس عال، وهو من جلد أحمر رائع.

. لاشك أنه يشبه كثيراً يا أبي كرسيك وأنت معلم في الصف.

ـ رجعنا للمعلمين والمدارس، تقاعدنا ولله الحمد، وانتهت القصة.

ـ حقيقة هذا الرجل غير مؤدب، قعد من غير استئذان.

. يا أمي يا أمي، لماذا هذا التحامل على هذا الرجل؟ هو مواطن وله الحق في القعود والانتظار.

. أنا ما أحببته، أنفه كبير ومفلطح، وجبينه عريض، وأصلع، وقصير، ومدعبل، مثل كرة القدم.
. ما هو مطلوب منك يا أمي حب هذا الرجل، يكفيك حبك أبي، وإعجابك بالسكرتير.
ـ تأدب ياولد، ماهذا الكلام في حضرة جدك وعمك وأبيك.
ـ على كل حال السكرتير أذكى منه، هاهو يلتفت ويقول له: المدير عنده اجتماع، وهذا يعني اخرج.
ـ ولكن الرجل غليظ، هاهو يسأل: متى ينتهي الاجتماع؟
. هذا من حقه؟
. أنت دائماً تدافع عنه.
. أنا أدافع عن كل صاحب حق.
. على كل حال الرجل خرج.
ـ والله أنتم أفسدتم علينا متعة هذه الحلقة، اتركونا نتابع.

المشهد ٣

. أوه، يا إلهي، هذا عقيد يدخل على السكرتير.
. رائع، فرق كبير بينه وبين الرجل الذي خرج.
ـ انتظري يا أمي، أنت ما رأيت غير ظهره، وهو داخل على السكرتير.
ـ واضح، صحته موفورة، قصير قليلاً، ولكن عليه هيبة، وبدلته أنيقة، والنجوم على كتفيه تلمع.

ـ حتى دخوله فيه ذوق، ومشيته قوية، حتى صوته، يحيي السكرتير بقوله: صباح الخير، هذه هي التحية اللائقة في هذا المقام.
. لاحظوا ياجماعة كيف نهض السكرتير فوراً وكيف توجه فوراً إلى باب المدير ليفتحه له، حتى قبل ما يطلب منه فنح الباب.
. ولاحظوا معي طوله، ما شاء الله، ما هذه القامة، لا يق، وأنيق، أتمنى أن يكون خطيب بنتي مثله.
. أنت ما لفت نظرك غير طوله وربطة عنقه.
. لا تظلمني، أنا لفت نظري منصبه، هذا بيده الحل والربط، يستطيع مساعدتنا في مؤسسة من مؤسسات الدولة، هو من غير شك صاحب علاقات واسعة، عمله سكرتير المدير يجعله يعرف كل الكبار.
ـ أنا عرفت، أنت لا يهمك إلا النفوذ، والله، أنا لن أزوجها إلا لرجل بسيط وعادي، وإذا تقدم إلى خطبتها صاحب نفوذ رفضته.
ـ أنت تريد تزويجها إلى مثل ذلك الرجل الذي دخل عليه قبل هذا الضابط، فقر وبسيط ولا يحسن التصرف.
. اسمعي ياأمي، أرجوك، أنا لن أتزوج.
. اسمعوا ياجماعة، ولا حظوا معي، هذا الضابط هو ذاك الرجل نفسه.
. لأ، غير معقول.
. لاحظوا أنفه، كبير ومفلطح.
ـ آه، إي صحيح، رفع القبعة وظهرت صلعته، والله هو.

ـ لكن السكرتير ما انتبه، وهو يفتح الباب ويقول له بتواضع: تفضل سيدي.
ـ آه، والله صحيح، الضابط يخلع سترته، ويظهر تحتها القميص الأصفر الذي كان يرتديه، ويقف أمام السكرتير ويقول له: هذا هو أنا؟ ولن أدخل، إنه هو حقيقة.
. يا إلهي، الرجل أدار ظهره وخرج.
ـ لاحظوا معي، السكرتير ما خجل، ولا تأثر، ذهب إلى موضعه وراء المكتب، وقعد في كرسيه الجلدي البرام، ولا اهتم ولا تأثر.
. هذا هو عمله.
. حلقة باهتة وضعيفة، يابنتي جهزي لنا فنجان قهوة.
. حاضر، ولكن صدقوني هذه أقوى حلقة.
ـ أنا أوافق ابنتي على رأيها، هذه حلقة انتقادية جريئة، تفضح المحسوبية.
ـ صدقوني، لو كانت جريئة حقاً لكانت منعت، كل شيء مراقب، هذا المسلسل كله لفش خلق الناس وامتصاص النقمة.
. يا أولاد يا أولاد، أفسدتم علينا المتعة، ما عدنا نفهم أي مسلسل، ما من قيلم أو أغنية أو مسلسل نراه حتى تملؤوا رأسنا بالنقد والتعليق.
ـ هذا ضروري ياجدي، يجب أن نعرف، التلفزيون يمارس علينا التجهيل.
. لا تتفرجوا.
ـ لأ، سنتفرج وننتقد، الفرجة لا تعني أن نقعد أمام التلفزيون، يا جدي، ونصمت، ونهز رؤوسنا ونقول

نعم، نعم، كل شيء جيد وممتاز، الفن هو نقد وحرية.
ـ ما قالته أختي صحيح، أنا أؤيدها، هذا التجهيل غير ممكن استمراره، لا شيء يستمر، كل شيء يتغير.

المسافر الثالث

المضيفة تدلني إلى مقعدي، وهي تشير بيدها: "الصف السادس، المقعد الثالث إلى جوار النافذة"، شكرتها، سررت أشد السرور، رجوت الموظفة المختصة بتثبيت أرقام المقاعد على البطاقات أن تجعل مقعدي إلى جوار النافذة، قلت لها: "أتمنى رؤية باريس من الطائرة"، في المقعد الأول شاب في العشرين من عمره، يضع على أذنيه سماعة، ألقى رأسه إلى مسند المقعد، أغمض عينيه، هو غارق من غير شك في عالم من الموسيقا الصاخبة، أود لو أدوس على قدمه، لو أحتك به، لا أعرف لماذا شعرت نحوه بالنفور، أكره هذا الصنف من الشباب، يسيرون في الشارع كالبلهاء، سماعات صغيرة في آذانهم، أي موسيقا هذه؟!، ألقيت بنفسي في مقعدي، التفتُّ نحو النافذة، أطل منها على ساحة المطار، ألتصق بالنافذة، كأنني أريد الخروج منها، هرباً من الشاب الغارق في عالمه، ليتني أجذب السماعة من إحدى أذنيه، يشغلني المقعد الخالي إلى جواري، أخشى أن يكون الراكب الثالث من أولئك الرجال البدناء، أصحاب الكروش الممتدة إلى أمام مثل شرفة، والأسوأ إذا كان مسافراً بالطائرة أول مرة، سيسألني أسئلة كثيرة، متى سنصل إلى بيروت؟ هل هناك محطة للتوقف؟ متى سيقدمون لنا وجبة الطعام؟ على أي ارتفاع نحن؟ أسمع بالمطبّات

الهوائية ولا أعرفها، هل هي خطرة؟ مرة ركب إلى جواري مسافر من هذا النوع، فأرهقني بمثل هذه الأسئلة، وأفسد عليَّ متعة السفر، لا أعرف من سيكون الراكب الثالث؟ وإذا طلب مني أن أخلي له مقعدي، ليكون إلى جوار النافذة، فلن أفعل، مهما كلف الأمر، الراكب القادم سيكون الثاني، وأنا الأول، وهذا الشاب هو الثالث، بل هذا الشاب هو الأول، وأنا الثالث، لا أعرف لماذا كرهت هذا الشاب، المضيفة تتحدث إلى حسناء، تشير إلى المقعد الخالي إلى جواري، تساعدها في وضع حقيبة يدها في الخزانة فوق المقعد، هي حقيبة خاصة بأدوات الزينة، حقيبة فاخرة جداً، الحسناء أنيقة، الزينة في وجهها وضعتها أنامل ماهرة، كأنها ممثلة على موعد للتصوير، بل لعلها الآن تقوم بدور، وثمة مصور الآن يصورها، حركتها رشيقة، مدروسة بعناية، كأنها ملكة جمال، ثوبها وردي رقيق شفاف، من الحرير الناعم، مفتوح عند صدرها، ذراعاها عاريتان، لو طلبت منّي التخلي عن مقعدي لتخليت لها على الفور، تقف أمام الصف، تتأكد من رقم التذكرة والمقعد، المضيفة تشير إليها مؤكدة، تقف، تتردد، تلتفت نحوي، تهمس بصوت، كأنها تؤدي دوراً في مسلسل، "تسمح لي بالقعود في مكانك"، أنهض على الفور، أخلي لها مقعدي، ستكون إلى جواري، سأنفرد بها، لن تكون إلى جوار هذا الشاب الميت، لكن يؤلمني أن أكون إلى جواره، أود لو أجذب السماعة عن أذنيه، لا أعرف في أي صخب هو غارق، أمر

أمامـه، كـي أخلـي لهـا مقعـدي، يحـس بالحركـة، فينهض، بلطف وهدوء، يبتعد عن صف المقاعد، يقف في ممر الطائرة، تمر أمامه الحسناء، توقعت أن ينظر في فتحة الثوب بين النهدين، يلتفت عنها، عيناه في الأرض، تستقر في مقعدي إلى جوار النافذة، مقعدي أصبح مقعدها، أحتل المقعد الثاني، الشاب بهدوء يتخذ موضعه في مقعده، ظل هو المسافر الثالث، أصبحت أنا الثاني، وأصبحت هي الأولى، الطائرة تتخذ موقعها على المدرج، محركاتها تضج، تنطلق بسرعة، كم أحب هذه الثواني، أحس بمتعة انطلاقها على المدرج، وسرعان ما تقلع، ونصبح في الجو، أميل نحو النافذة، متجنباً التماسّ مع الذراع العارية للحسناء، ولكنني أغرق في عطرها الفاغم، ها قد صرنا في الجو، الحسناء ملتصقة بالنافذة، كأنها تريد الخروج منها، الطائرة تميل بجناحها نحو الشمال، باريس أصبحت تحتنا، أميل نحو النافذة لألقي نظرة، لا أرى شيئاً، الضباب يغطي كل شيء، الطائرة تعتدل، أصبحت الآن على ارتفاع اثني عشر ألف قدم، تستقر في انطلاقة هادئة، هسيسها وهي تخترق الفضاء ناعم مثل ثوب الحسناء إلى جواري، أود لو ألمسه.

سأرجع بعد بضعة أشهر إلى باريس، سأسافر على خطوط الإير فرانس، لا على الخطوط الباكستانية، لن يكون ثمن التذكرة من حسابي الخاص، سأكون من ركاب الدرجة الأولى، وسيكون في مطار أورلي من ينتظرني، ليصطحبني في سيارة ليموزين، سأنزل

في فندق متميز، لن أنزل في فندق فياب، وسيحجز لي جناح، وسأعود على خطوط الإير فرانس.
جارتي الحسناء تجهش في البكاء، تنهنه، تمسح دموعها، تخفي وجهها في النافذة، تجذب إلى أسفل الغطاء البلاستيكي للنافذة، حسناً فعلت، فنحن لا نرى شيئاً عبر النافذة، أحب كثيراً هذه الإضاءة البيضاء داخل الطائرة.

*

. عندك شخص عزيز في باريس، تركته وحده؟
. تركت وجودي كله هناك.
. أنت بيروتية؟
ـ لا بيروتية ولا باريسية، أنا ما عدت أي شيء، أنا معلقة في الفراغ.
ـ هذا صحيح، صرنا كلنا معلقين في الفراغ، في السماء، اعذريني، أنا أثرت شجونك.
. أشكرك، أنت تسليني.

*

أودّ لو أمسح دموعها، لو أرشفها، عيناها واسعتان، الكحل الأسود يزيدهما جمالاً، بدأ يسح على الخدين، الحزن زادها سحراً، أود لو أحتضنها، لو أضمها إلى صدري، لأنسيها الحزن.

*

ـ أنت احتفلت في باريس برأس السنة، والآن راجعة لبيروت لتعيشي مع الأهل سنتك الجديدة.
ـ أنا متُّ في باريس، وراجعة لأموت مرة ثانية في بيروت.

. لا، أنت في أول الشباب، ومع السنة الجديدة ولدت من جديد.
. مع السنة الجديدة انتهت حياتي، مع دقات الساعة الثانية عشرة، مثل سندريلا، انتهى مفعول السحر، سندريلا تشوهت، وما التقط الحذاء أحد، من يلتقط فردة خف مهترئ؟.
ـ هذا الشعور طبيعي، نأسف على مضي سنة من عمرنا، ولكن أمامنا المستقبل كله.
. أي مستقبل؟ أرجوك لا تجاملني، الماضي وحده هو أمامنا.

*

أصمت، أعتدل في جلستي، أبتعد بكتفي عنها، هل جاءت إلى فرنسا للعلاج، واكتشفت إصابتها بمرض خطير؟ سأتركها، لا أريد إحراجها، أنا على يقين أنها ستتكلم بعد قليل.

*

لا أظن أني ساقعد إلى جوارك، أكرهك وأكره باريس، لا شك أنك باريسي، لا أحب هذا الوجه الأصفر ولا هذه اللحية الشقراء الخفيفة، ولا هذا الشعر الأصفر فوق رأسك المرسل على الطريقة الرومانية، لا شك أنك من مدمني المخدرات، السماعة على أذنيك، وأنت غارق في عالمك المجنون، أكرهك، سأطلب من ذلك الرجل الخمسيني ليخلي لي مقعده إلى جوار النافذة، أفضل أن يحتك بي ألف مرة، من أن تقترب أنت مني ولو سنتيمتراً واحداً، أنت مهذّب، أنا لا أحب الشاب المهذّب، ازداد كرهي لك، تنهض فوراً

لأجلي، تخلي لي الطريق لأمر أمامك، بل تبتعد إلى الوراء في الممر، تكاد تصدم المضيفة، تنظر في الأرض، ولا تنظر فيّ، لا تخف، لن أحتك بك، هل أنت قديس؟ هل أنت شاذ؟ تنظر إلى الأرض ولا تتطلع إلى وجهي، لو مرت أمامك قطة كنت تطلعتَ إليها؟! لا أظنك من المدمنين، شممت فيك رائحة هادئة مريحة، وجهك عن قرب مريح، لحيتك الشقراء الناعمة ليست لحية مدمن، لا لست من المدمنين، هل أنت السيد المسيح؟ بالتأكيد يمكن أن تقوم بدور فيلم يصور حياة المسيح، "تسمح لي بالقعود في مكانك"، توقعت أن يستجيب إلى طلبي، لا يمكن أن يرد طلبي أحد، حتى المضيفة أسرعت إلى تناول الحقيبة مني ووضعتها على الرف من غير أن أطلب منها، أظنها أجمل فتاة في باكستان كلها، لو كانت الباكستان ترشح فتاة لانتخاب ملكة جمال لكنت أنت ملكة جمال العالم، ولكن لا أتوقع حصول هذا إلا بعد خمسين عاماً، قد تنال حفيدتك شرف هذا الترشيح، أما أنت فلا، هذا إذا حافظ نسلك على هذا الجمال، وأنت لبناني من غير شك، لعلك من البقاع، الشمس لوحت وجهك، نحيل، لست فلاحاً، ولكنك ابن فلاح، لا لست من طرابلس، لست من سكان الساحل، كتفاك ضيقتان، أنت لا تعرف السباحة، وأنت مهذب أيضاً، تتجنب الاحتكاك بي، لكن ستحاول بعد قليل، كلكم كذلك، مقعد الطائرة سوف يشجعك على ذلك، المقعد ضيق وصغير، تباً لك، أنسيتني باريس، أود لو أمد رأسي من هذه النافذة

لألقي نظرة أخيرة على باريس، سامحيني باريس، أكرهك، عشقتك سنة كاملة، والآن أكرهك، ليت هذه السنة لم تكن، يوم نزلت فيك العام الماضي بكيت، حاولت حبس دموعي ما استطعت، والآن أحاول حبسها، لا أستطيع، وداعاً باريس، لن أراك، كنت عرشي، اليوم أنت قبري، أنا انتهيت، ليتني ما حملت هذا الصندوق، ليتني أنساه عند مغادرة الطائرة، ليأخذه هذا الشاب الباريسي، لا أظنه من باريس، هو من اسكندنافيا، لعله من استوكهولم، وجهه الأبيض الشاحب يؤكد أنه ما رأى الشمس، وهذا الخمسيني يجاملني، لا شك سيسألني ماذا كنت أفعل في باريس؟ ولماذا هذا البكاء؟ لكن يجب ألا أضعف، يكفي أني عشت سنة لم تعش بنت مثلها، قليلات هن اللواتي عشنها، وقليلات اللواتي سيعشنها، ولكن ما أقسى انتهاء السنة، ما أصعبها، كأنك تطرد من فندق فخم، شيراتون، أو هيلتون أو ميريديان، تعيش فيه سنة ثم تطرد منه، ترى هل سيفهم هذا الرجل قصتي؟ لا أظنه إلا تاجر مخدرات، لا علاقة له بعالم الفن والجمال، لو كان على أدنى علاقة بالفن والجمال لعرفني على الفور، وهاهو ذا يحدثني عن السنة الجديدة، ويقول إنها ولادة جديدة، يريد أن يظهر بمظهر الفيلسوف، ولكن أراه لا يفهم شيئاً، كيف سأحدثه؟ هل أقول له إن حياتي انتهت بدءاً من أول ديسمبر، في الخامس من ديسمبر أخرج من شركة إعلان صغيرة ، من أصغر شركة إعلان في باريس، أكاد أصطدم بالباب الزجاجي، عميت

عيناي، "نأسف عن توقيع أي عقد جديد، نحن في نهاية العام"، نهاية العام هي نهاية العالم، بل هي نهايتي أنا وحدي، أحسست أني علبة دواء انتهى مفعولها، هل أبادره بالكلام، أراه سكت، هل انتقلت إليه عدوى جاره الشاب الأصفر اللون كالموتى، هل مات هو الآخر؟ سأمسح دموعي، لا جدوى، أنا سأبدأ معه الحديث، لا حل سوى الهرب، لعلي أنسى.

*

. أنت بيروتي؟

. لا، أنا من طرابلس.

. جئت إلى باريس لتحضر حفلة رأس السنة؟

ـ لا، غير معقول لشخص مثلي يسافر لباريس من أجل حفلة رأس السنة، مظهري يدل على أني أرستقراطي؟.

ـ لا، لو كنت أرستقراطي كنت سافرت على الإيرفرانس، ما كنت سافرت مثلي على البيا.

*

هل أصارحها؟ هل أخبرها عن سبب سفري، أخشى أن تسخر مني، لا أظنها تقرأ مجلة أو جريدة، هل أقول لها سافرت إلى باريس للقاء عشيقة، هل أخترع قصة حب؟.

*

حديثه ممل، هو الآخر ممل، مثل جاره الشاب الأصفر، انتقلت إليه عدوى الجمود، كل شيء مات مع السنة الماضية، حتى الرجال ماتوا مثلما ماتت

السنة الماضية، من سيلتقط الخف المهترئ؟ بطل مفعول السحر مع أول دقة من دقات الساعة الاثنتي عشرة، لا أجرؤ على مصارحته، قد يشمت بي، ظننته ابن فلاح من البقاع، وإذا هو من طرابلس، ولكن ما هو بالبحار ولا الصياد، لعله من قرى طرابلس، أمامنا ثلاث ساعات إلى بيروت، لا بد من تمضيتها.

*

– واسمحي لي بسؤالك عن سبب زيارتك لباريس؟

ـ اسألني عن سبب عودتي إلى بيروت، أنا السنة الماضية كلها كنت في باريس.

. عمل؟

. بالطبع.

. وانتهى العمل.

. العمل لا ينتهي، أنا انتهيت.

. لغز؟

. لا.

. لم أفهم أيَّ شيء، وضحي لي بعد إذنك؟

. سمعت بميشلين؟

. ربما؟!

ـ ما شاهدت صورتي على غلاف مجلة أو زجاجة شامبو أو علبة صابون؟

ـ عملك في قسم الدعاية، هذا شيء رائع، حقيقة وجهك جميل ويصلح للدعاية، وبالتأكيد انتهى عقدك عن العام الماضي، ولا بد من تجديده للعام الجديد.

. لا، أنا انتهيت، مثما قلت لك، مع العام الجديد.

. والسر؟
. في الصندوق فوق.
. ماذا فيه؟
. تاج ملكة جمال العالم.
. أوه رائع، أهنئك.
ـ هو عن العام الماضي، كنت ملكة جمال العالم العام الماضي، انتهى مفعوله، وانتهيت معه.

*

هي تمسح دموعها، وأنا أغوص في مقعدي الصغير، أتضاءل، ماذا أقول لها؟

*

. أنت جميلة أنت ملكة الجمال، ولو من غير تاج.
. الجمال من غير تاج لا قيمة له.
. الجمال الحقيقي لا تاج له.
ـ لكن الواقع غير هذا، وأنت هل كنت في باريس العام الماضي كله؟
. لا، أنا جئت قبل أسبوع واحد.
. أنت جئت لحفلة رأس السنة.
. لا.
. سر؟!
. أخجل من مصارحتك.
. عشيقة، مرض، إيدز، جنون؟
. كل هذا.
. غير معقول؟!
ـ أنا محمد أحمد، هل قرأت هذا الاسم على غلاف رواية.

. لا، للأسف، لا أقرأ الروايات ولا الأشعار.
ـ أنا روائي، عندي عشر روايات، جئت إلى باريس لأقدم نسخة من روايتي الجديدة إلى مسابقة البوكر في باريس.
. أهنئك، وأتمنى فوزك بالجائزة الأولى.
ـ بعد حديثك عن تاج ملكة الجمال، ندمت على اشتراكي في المسابقة، أفكر في العودة إلى باريس لسحب المشاركة، قد أرسل إليهم فور وصولي إلى بيروت رسالة قصيرة بالجوال لإلغاء مشاركتي.
ـ لا، لا تفعل، أنا أشجعك على الاستمرار، وسوف تفوز، وستدعوني إلى حفل توزيع الجوائز، وسأحضر ولو على الخطوط الجوية الباكستانية، بالتأكيد أنت ستحجز لك تذكرة على خطوط الإير فرانس.
ـ الوعد هو حجز تذكرتين، للفائز ولمن يرغب في اصطحابه.
. تصطحبني؟
. من غير شك.
. ما عندك زوجة أو صديقة؟
. المهم هو أنت الآن.
. الآن؟!
ـ لا أقصد الآن فقط، أقصد أنت مهمة بدءاً من الآن.
. تتساني.
. لن أنسى ميشلين ملكة الجمال.
. ملكة جمال العالم للعام الماضي.
. لا، أنت ملكة الجمال من غير مكان ولا زمان.

*

منافق وكذاب، أنا ملكة جمال المقعد الصغير إلى جوارك ولمدة ثلاث ساعات، وها قد مضى منها نصف ساعة، وعندما نهبط من الطائرة ستمضي من غير أن تودِّعني، وقد تطلب مني بعد قليل عنواني ورقم هاتفي، ولكنك ستمزقه، أو ستكتب رواية جديدة عن ملكة جمال العالم للعام الماضي، بل لا أظنك ستكتب، ستنساني، الكل نسيني، الكل سينساني، وأنا يجب أن أنسى نفسي، ربما كان هذا الشاب النحيل الشاحب الأصدق، هو على الأقل صادق مع نفسه، لا يريد أن يثرثر، لا يريد أن يدخل في عالم الآخرين، بدأت أقدِّره، لا يهمني شحوبه، يهمني صمته، الصمت في النهاية هو الصحيح، سأصمت، لن أتكلم، سأعقد يدي على صدري، سأغمض عيني وأنام، لن أكلمه، لن أكلم أحداً.

*

حقيقة أنت ملكة الجمال، بهرني جمالك، ماتوقعت أن تكوني ملكة جمال العالم، لا، لن أنسحب من المسابقة، يجب أن أفوز، ستفوز روايتي بالجائزة الأولى، وسأسافر إلى باريس على الإيرفرانس، ستكون ميشلين إلى جواري في الطائرة، ستشاركني الفرحة، ستكتب عنها وعني وعن الرواية الصحف، ستجري معي المحطات الفضائية المقابلات، وستكون هي إلى جواري، ستترجم روايتي إلى الفرنسية والإنكليزية، وسيفوز غيرها بعدي، ولكن ستبقى هي من الروايات الفائزة، مهما مر الزمان،

وستبقى ميشلين ملكة الجمال، كيف سأعبر لها عن حلمي؟ وهل ستصدقني؟ هل يمكن أن تشاركني هذا الحلم؟

*

روائح الطعام الساخن تملأ الأجواء، بهارات هندية عبقة، المضيفة السمراء تصل، وهي تدفع عربة، سأطلب لحم العجل بالكاري والأرز، تناولت منه وأنا قادم إلى باريس، كان شهياً جداً، طلبت بعده الشاي الأخضر، سأطلب أيضاً الشاي الأخضر بعده، المضيفة تسأل ملكة جمال العالم، تطلب قهوة بدون سكر، أطلب مثلها القهوة، وبدون سكر أيضاً، جاري الميت لا يتكلم، وددت سماع لغته، يشير بيده إلى التفاح، يتناول من يد المضيفة تفاحة، يهز رأسه شاكراً، السماعة ما تزال على أذنيه، يضع التفاحة أمامه في الكيس المعلق في مسند المقعد.

*

. أنت مغرمة بالقهوة؟

. بالطبع، الأمر لا يحتاج إلى سؤال.

، لذلك ما أخذت وجبة، وأنا مغرم بالقهوة مثلك، والسيكارة؟.

. طبعاً، لا بد من سيكارة أو اثنتين مع كل فنجان.

ـ أنا أدخن، ولكن أقل منك، بدأنا نقترب من بيروت؟!.

. لا، بيروت بعيدة، هذه كريت.

*

هاهو يميل نحوي، يلصق كتفه بكتفي، بل يضغط على كتفي، يدَّعي محاولة النظر من النافذة ليرى بيروت، عضلاته لينة، ليست عضلات ملاكم ولا مصارع، وأنا لست مستعدة الآن لاستقبال أي لمسة من أي رجل، ولو كان الأول في العالم بكمال الأجسام أو رفع الأثقال، لا أعرف كيف يمكن أن أبعد كتفه عن كتفي، أود الخروج من النافذة، لم يعد للقهوة طعم.

*

الطائرة تحط في مطار بيروت، القبطان يعلن في مكبر الصوت:

ـ بإمكان ركاب بيروت الآن مغادرة مقاعدهم، ونذكرهم بأخذ حقائب اليد من الصناديق فوق رؤوسهم، وترك الصناديق مفتوحة، الرجاء من الركاب المسافرين إلى دمشق، بغداد، جدة، طهران، كابول، كراتشي، نيودلهي، بنغلاديش، بكين، البقاء في أماكنهم.

*

أفسح المجال لملكة جمال العالم كي تمر أمامي، تمضي، أقول لها:

. صندوق التاج؟

. صدقني أتمنى تركه على الرف.

أتناول الصندوق من الخزانة فوق رأس الشاب، تمد يدها لتحمل الصندوق، أصر على حمله عنها، ولكنها تأبى، تأخذه مني، وتمضي أمامي.

ألتفت إلى الشاب، السماعة على أذنيه، رأسه ملقى إلى الوراء على مسند المقعد، عيناه مغمضتان، التفاحة قابعة في الكيس المعلق أمامه في مسند المقعد.
تسير أمامي في الممر الضيق بين المقاعد حاملة صندوقها، أسير وراءها، يدي اليمنى على كتفها، كأنني أعمى أهتدى بها.
عند باب الطائرة، قبل أن أغادر، ألتفت إلى الشاب، أنظر إليه، ما يزال هو على ما هو عليه، أسأل المضيفة:
ـ أين سينزل الشاب النحيل القاعد هناك في الصف السادس؟
تجيبني:
. لا أعرف، الرحلة طويلة، أمامنا تسع محطات.
. بلغيه اعتذاري، أنا قصرت في حقه، أتمنى له رحلة ممتعة.

*

في النفق من باب الطائرة إلى قاعة الركاب القادمين، تسألني:
. ما سر اهتمامك بالشاب الصامت؟!
ـ على العكس، أنا ما اهتممت به، أنا في الحقيقة نادم لأني طوال الرحلة ما كلمته، والأكثر من ذلك، أنا مذنب، أول ما وقع نظري عليه نفرت منه.
. وأنا مثلك، ليسامحني الرب.

*

وصلنا إلى صالة القادمين، لا أعرف كيف سأتخلص منه، كم هو سمج وثقيل، يده على كتفي في ممر الطائرة باردة وثقيلة، كم احتك بي والتصق، خطوة أخرى ويضمني إليه ويقبلني، سمج وساذج وغبي وثقيل، تمنيت لو أخذ الصندوق والتاج الذي فيه ومضى في حال سبيله، هل أدَّعي أن عندي حقائب كثيرة، يجب انتظارها، وأني سأتصل بأخي ليأتي بسيارته ليأخذني إلى البيت، مع أنه ليس عندي حقائب، وليس لي أخ؟ ماذا أفعل؟ أتوقع ألا يكون معه أي حقيبة، فهو لم يمض في باريس سوى أسبوع واحد، أظنه لن يطيق الانتظار طويلاً، ولكن قد يبقى معي ينتظر الحقائب، ماذا سأفعل؟ تخرج كل الحقائب، وأزعم أن حقائبي ضاعت أو سرقت، أخشى أن يتطوع لمساعدتي لدى شرطة المطار؟ كيف سأتخلص منه؟ وأنا أمر أمام الشاب، عند المغادرة، وليتني قعدت إلى جواره، فكرت في مد يدي إلى الكيس وسرقة التفاحة، وهو نائم، ليسامحني الرب.

*

أتمنى ألا أتركها، تركها خسارة، ولكن ماذا يمكنني أن أفعل، لا يمكن أن أحتفظ بها، ولا أعرف كيف سأعتذر إليها، ليس عندي شقة خاصة لا في طرابلس ولا في بيروت، وليس بإمكاني دعوتها غداً إلى أي مطعم، وهي المعتادة على المطاعم الفخمة، وأنا لن أبقى في بيروت، أنا مسافر اليوم بالحافلة إلى طرابلس، حتى إنني لا يمكن أن أعطيها عنواني

فـي طـرابلس، شـقتي متواضـعة، ومـن المطـار إلـى بيـروت لـيس بإمكـاني أخـذ سـيارة أجـرة، أنـا سـأنتظر حافلـة النقل العام لتحملني من المطار، وأمامي بعد ذلـك رحلـة بالحافلـة أيضـاً إلـى طـرابلس، أنـا لـيس عندي أي حقيبة، حتى إني ما اشتريت أي هدية من باريس لزوجتي أو الأولاد، هل أزعم أن معي حقائب كثيـرة وعلـيَّ الانتظـار حتـى خروجهـا مـع الحقائـب؟ أظنهـا لا تحـب الانتظـار، لا أعـرف بـأي طريقـة سأعتذر إليها، ليتني كنت مثل ذلك الشاب الميت.

حرية...لثلاثة أيام فقط

زوجتي ترقد في المستشفى، منذ يومين، وقد أجرت عملية بسيطة، وفي هذا اليوم، ستغادر المستشفى، وأنا في المطبخ في مكانها أعد الطعام للأولاد، عرضت عليهم الذهاب إلى المطعم، فقالوا لا نذهب إلى أي مطعم من غير أمنا، عرضت عليهم الطعام الجاهز من السوق فقالوا: "أي طعام تشتريه من السوق نشتهي أن تكون أمنا معنا لتشاركنا فيه"، لم أجد حلاً سوى أن أطبخ لهم الطعام بنفسي، أخذت إجازة من العمل لثلاثة أيام، وأنا الآن في المطبخ وراء القِدْر.

*

جدتي كانت تصب الماء في القدر من غير أن تقيسه بأي مكيال، كانت تقول: "المسألة مسألة ذوق ونظر"، أمي تكيل الماء بالكاسات، جدتي كانت تعيب عليها ذلك، يرحم الله الاثنتين، زوجتي دائماً تنظر في كتاب فن الطبخ، بل في كتب فن الطبخ، وأبت إلا شراء ميزان مطبخ، ابنتي في باريس كثيراً ما تتصل بأمها وأسمعها تسألها عن طريقة إعداد الباذنجان مع اللحم في الفرن أو البطاطا.
أنا اليوم سأعتمد على نفسي، لن أسأل أحداً ولن أستعين بكتاب ولا مكيال ولا ميزان.

أصب الماء في القدر، لا أذكر كم كأساً صببت، الكاس ما زال في يدي أشرب نصفها، وأصب البقية، ما أعذبه، كأنني أول مرة أشرب الماء، "وجعلنا من الماء كل شيء حي"، كأنني أشرب ماء من ذوب الثلوج في القطب الشمالي، لِمَ لا، والبحار والمحيطات كلها متصل بعضها ببعضه الآخر، الماء في العالم واحد، الماء يندا ح في قاع القدر، يترقرق شفافاً صافياً، كأنه مرآة، أكاد أرى وجهي فيه، مثل الفتى نرسيس وهو يتأمل وجهه في صفحة بركة رقراقة، الماء في القدر يذكرني بعجوز قرأت لي مرة طالعي في صحن فيه ماء شفاف، لم يتحقق من كلامها شيء، كان كلاماً جميلاً تمنيت لو تحقق بعضه، لهب النار أزرق شفاف يميل إلى اللون البنفسجي، أحس حرارته، لو كنا في الشتاء لتدفأت به، مثلما تدفأت بائعة الكبريت بلهب أعواد الثقاب ثم ماتت على الرصيف متجمدة من البرد بعد أن نفدت أعواد الثقاب، أضع القدر على النار، أتحكم بمفتاح الموقد، القدر بركان صغير، بعد قليل سيثور البركان، ويصبح قاع القدر مثل البحيرات الحارة، هذه الفقاعات بدأت تنبثق في القدر، الماء يغلي، وهذه ذرات من الملح، أتذوقه، هو ملح بحري أبيض نقي، له طعم خاص، هذه أول مرة أتذوق فيها الملح وأنا في المطبخ أمام الموقد، وراء هذا الملح بحار ومحيطات، له رائحة اليود، ولذعة الصخور، أوه نسيت الأرز، كان يجب أن أنقعه في الماء، لا بأس سأغسله بسرعة، مزارع الصين أمامي، والفلاحون

أرجلهم تغوص في الماء، وأصابعي تغوص في الصحن، نداوته ممتعة، ودغدغة حبات الأرز مسلية، أحمل حبات الأرز، أصفيها من الماء، أصبها فوق الماء الحار.

*

يرن جرس الهاتف، أجعل النار تحت الأرز هادئة، صوت حماتي، أعتذر إليها، لا، لا، لا تتعبي نفسك، تريد أن تأتي لتطهو لنا الطعام، أشكرك، أنت لم تستطيعي زيارة ابنتك في المستشفى، عظامك نخرة متآكلة، وركبك لا تكاد تحملك، هل يعقل أن تقفي هنا في موضعي وراء القدر، دعيني وحدي، لا أريد لأحد أن يحل في المطبخ محل زوجتي، لا أريد لأحد أن يحرمني هذه المتعة، أنا هنا وحدي، أمارس أول مرة الطبخ، هل جرب آدم قبلي الطهو بنفسه؟ أنا آدم المطبخ، أتعامل مع الكون كله، أكتشف أول مرة سر الطعام، بل سر المطبخ.

ماذا سأطبخ إلى جانب الأرز؟ لن أتقيد بكتاب ولا وصفات ولا توصيات، هل يعقل أن أتصل بابنتي في باريس لأسألها كما تسأل هي أمها، لن أستعين بأحد، أنا هنا في هذا الكون وحدي، سأصنع ما أشاء، قبل أن يأتي الأولاد، قبل أن تأتي حواء، بين الموقد والخزانة أروح وأجيء، حركة ممتعة، هي خير من جلوسي وراء المنضدة في مكتبي ثماني ساعات، يدي تتشنج وأنا أضع التوقيع والخاتم على آلاف الوثائق كل يوم، صورة طبق الأصل، نعم، صورة طبق الأصل، صورة طبق الأصل، صورة طبق

الأصل، وهل الأصل طبق الأصل؟! لا أعرف، أنا أصادق فقط على مطابقة الصورة للأصل، كان المطلوب صورة واحدة، أصبح المطلوب ثلاث صور، وغداً حتى قبل تقاعدي سيكون المطلوب خمس صور، صورة طبق الأصل تتكرر أمامي، تتكرر في منامي، أنا رئيس قسم التصديق، على المنضدة قطعة خشب مزخرفة، أحمد محمد الأحمد المحمود الحمدان الحميدان، رئيس قسم التصديق، أحمل القلم وأوقع، أحمل الخاتم وأختم، أحمل سكيناً، أنتقي خمسة رؤوس من البصل، أقطع الرؤوس، أقطع الذيول، هل أقسمها شرائح، هل أفرمها قطعاً صغيرة، لن أذرف دمعة، لن أجرح إصبعي، السكين تدخل في طبقات البصل، تخترق طبقات الأرض السبع، تقسمها شرائح شرائح، أوزعها فوق الزيت الحار، أزيد من قوة النار تحتها، الزيت له نشيش، يمكن أن أصنع موسيقا من هذا النشيش، أتملى شرائح البصل وهي في الزيت المشتعل، أرش فوقها الملح، كم رائحة البصل شهية، لا أعرف لماذا تشتكي زوجتي من رائحة البصل، الدموع تملأ عينيها، أوه، الآن بدأت عيناي تذرفان الدمع، هذه هي الحقيقة، لا بد أن نبكي حين نعرفها، ولذلك نهرب منها، قشرة وراء قشرة، ونظل نزيل القشور، رائحتها كريهة، تدمع لها العينان، ولا شيء في النهاية سوى القشور، لا أعرف من قال هذا، هكذا هي الحياة، فلتكن، هي جميلة، حتى لو كانت بصلة، سنعيشها، ونقشرها، وندخل في طبقاتها،

ونعرفها، شرائح البصل بدأ لونها يميل إلى الحمرة، كأنها أجنحة عصافير ملونة، أصب فوقها قطع البندورة الحمراء، أصب فوقها قطع اللحم، وددت لو أني ذبحت ذلك العجل بيدي، ثم حملت رأسه من قرنيه، كم لحمه قاس وسميك، ولكنه شهيّ، السكين تغوص فيه، وأنا أضغط، الجزار لم يقطعه بشكل فني، أنا قطعته بفنية أجمل، جعلته مكعبات صغيرة، لا، ليس بحجم مكعبات النرد، أكبر، أكبر، يجب أن يبقى فيه مذاق اللحم، لا بد أن تهرسه الأضراس، لا أعرف لماذا تخيلته بقرنين، العجل لا قرون له، البائع قال هو لحم عجل، وأنا أتخيله الآن لحم ثور، بقرنين ورأس كبير، مثل رأس المدير العام، حتى لحمه مثل لحمه، حتى جلده، لا، عدلت عن قراري، لن أترك لحمه نيئاً، سأسلقه أكثر، سأجعله ينضج وينضج، حتى يهترئ، حتى يذوب، حتى يضمحل، ما أجمل أن تعدل عن قرارك بسرعة، وأن تتخذ قراراً جديداً، لا شك أن آدم كان يعدل كل ساعة عن قراره، ويتخذ قراراً جديداً، فالمطبخ عنده واسع، وسع الكون كله، وهو وحده، ومطبخي الآن أنا هو الكون كله، الآن عرفت سبب كثير من حالات الخصام بين أمي وجدتي، يرحم الله الاثنتين، ثم بين أمي وزوجتي، هذه تقول لها قطع اللحم كبيرة، يجب أن تكون أصغر، وهذه تقول لها بل هي صغيرة يجب أن تكون أكبر، وأنا هنا وحدي، أتصرف بحرية، اللحم الأحمر يدخل في البندورة الحمراء، يمتزج مع شرائح البصل، أرش فوقه البهار الأسود، أشمه، أرش البهار

الأبيض، أشمه، هما مختلفان حقيقة، كم كنت أخاصم زوجتي وأقول لماذا الأبيض والأسود؟ هما سواء، الآن عرفت، الليل ليس كالنهار، للنهار رائحته، والليل له رائحته، كم رائحته شهية، ولا سيما في الشتاء، عندما يغسل المطر الكون، أو عندما تقعد إلى جوار المدفأة وتقشر حبات الكستناء السمراء المشوية، وليل الصيف له رائحته، عندما تمسح الوجوه والأذرع العارية في الشرفة نسمات القمر ويسطع في الأجواء عبق القهوة، أوه، لا يمكن أن أنسى الفليفلة الحمراء، والخضراء، وإذا نسيتها فماذا يعني ذلك؟ من سيعاقبني؟ هل نسيت أن أوقع على دفتر الدوام؟ هل وضعت الختم قبل أن أوقع، ثم نسيت التوقيع، هذه هي قرون الفليفلة الحمراء، هل أزيل منها البذور والعروق؟ ليست حارة، لن أزيلها، من الممكن أن أفرمها قطعاً صغيرة، ومن الممكن أن أقطعها بالعرض لتصبح دوائر دوائر صغيرة مفرغة، شكلها هكذا أجمل، ولا سيما حين تتعانق دوائر الفليفلة الحمراء مع دوائر الفليفلة الخضراء، وتنضم إليها شرائح البصل المحمرة، كأنها أساور زجاجية ملونة في يد طفلة شقراء، ولا بد من القليل من الماء، في كل مكان لا بد من الماء، ولو بقدر، يمكنني أن أصب ما أشاء من ماء، لا مكيال، ولا ميزان، هنا أحكم ذوقي، أتحكم برأيي أنا، أنا أجتهد، أنا أقرر، أنا أفعل، أنا أطبخ، أنا مدير المطبخ، أنا وحدي، أحرك المزيج بملعقة خشبية، أخلط العناصر، لا بد أن يتحد الهواء مع الماء، هل يتحد به؟ لا أعرف، لا

بد أن تمتزج الحرارة بالعناصر كي تنضج، أنقر بالملعقة على حافة القدر، إيقاعها هادئ، هذه هي موسيقا الحياة، كانت أمي تنقر على حافة القدر بملعقة من معدن، فيرن الصوت، تنقر بإيقاع معين، كأنها تعزف لحناً، تضجر منها جدتي، فتصيح: "كفى شطارة، سمع كل الجيران، عرفوا أنك في المطبخ"، لا بد من تغطية القدر حتى تحل الرائحة في الطعام فتمنحه نكهته، ما أشهى الرائحة، عندما نجلس إلى مائدة الطعام كانت أمي لا تأكل إلا القليل، يلح عليها أبي، فتقول: "شبعت من رائحة الطبخ""، حقيقة رائحة الطبخ ممتعة.

*

جرس الباب يرن، جارتنا بالباب، هي صديقة زوجتي، تقول لي:"شممت رائحة الطعام تخرج من نافذة مطبخكم، هل تريد أي مساعدة؟ هل ينقصك أي شيء؟"، أشكرها، أعتذر إليها، لا، لا أريد أي شيء، أسرع فأغلق الباب، أريد أن أبقى وحدي، هنا في مملكة زوجتي، في مملكتي، لا أريد لأحد أن يحل في محلها، دعيني وحدي، أرجوك، دعيني أمارس حريتي.

*

أنا الآن أمام المائدة، أوزع الصحون، والأطباق، والكؤوس والملاعق، هذه خريطة العالم أمامي، أنا أوزع القارات والجزر والممالك والبحار والمحيطات، أعيد تشكيلها كما أريد، الملك لير لم يوزع المملكة بين بناته بالعدل، حرم الصغرى لأنها لم تتملق

غروره، أنا لن أحرم أحداً من أي قارة أو مقاطعة، فأنا لست العجوز الخرف مثله، لتكن الملاعق على اليمين أو لتكن على الشمال؟! ما يضر؟ هناك في المديرية يجب أن أضع خاتمي وتوقيعي على اليمين من صورة الوثيقة، صورة طبق الأصل، ثم يضع المدير خاتمه وتوقيعه على الشمال من صورة الوثيقة، هو لا يضع الخاتم، هو يوقع فقط، السكرتيرة هي التي تضع الخاتم، المدير العام أنزل له في مكتبه من السماء سكرتيرة خاصة فقط لوضع الأختام، ليست سكرتيرة، هي لؤلؤة، هي حورية، كما يقال، من حوريات الجنة، من المؤسف وهو يحمل شهادة عالية أن يكون عمله التوقيع على آلاف الوثائق كل يوم، لا لشيء إلا لأنه المدير العام، دكتوراه من برلين في علم المعادن، ودكتوراه ثانية من أوكسفورد في النظائر المشعة، ما الفائدة من هذه أو تلك؟ شهادة ضائعة في غير محلها، كم أكرهه، كم أشفق عليه، أنا لا أحمل غير الإجازة في الحقوق، وبمعدل مقبول، وبعد تسع سنوات من الحياة الجامعية الفاشلة، من الطبيعي أن يكون عملي التصديق على صور الوثائق، سأكسر كل الأعراف، لن يختل نظام العالم، أنا سأصنع نظاماً جديداً للعالم، سأضع الأشواك والملاعق والسكاكين كلها بعضها مع بعض، تارة على يمين هذا الصحن، وتارة أخرى على شمال ذلك الصحن، هذه هي الفوضى الخلاقة، ثم سأقدم الفاكهة أولاً، لن أقعد أمام رأس المائدة، ليقعد مجد أصغر أولادي أمام رأس

المائـــدة، المـــدير العـــام دائمـــاً يتصـــدر قاعـــة الاجتماعات، يقعد أمام رأس الطاولة، على شماله نائبـــه الأول، أتمنـــى أن أرى ذات يـــوم البـــواب أو الحـارس الليلـي وهمـا يتصـدران طاولـة الاجتمـاع، سأجعل على شمالي ابنتي الصغرى هناء، لتقعد لينا علـى رأس الطاولـة، هـي صـورة طبـق الأصـل عـن أمها، في شكلها وفي عنادها، ولكن لا، لا يمكن أن تحل محل أمها، عادل وأنس لا يشبهاني في شيء، كلهـم يشـبهون أمهـم، ليتـوزع الأولاد كمـا يشـاؤون، زوجتـى تعبـد القـوانين والنظـام والترتيـب والأعـراف والتقاليد، تعبد الوظيفة، هي دينها ودنياها، بل تعبد المدير، تقول لي: أنا في المديرية ما يقارب الثلاثين عامـاً، مـر بـي عشـرة مـديرين، ولـم أجـد مثـل هـذا المدير، هو أول من يداوم، وآخر من ينصرف، وفي أكثـر الأيـام يـأتي إلـى المديريـة بعـد السـابعة مسـاء ويظـل حتـى الحاديـة عشـرة لـيلاً، المشـكلات المعقدة يتركهـا للـدوام الليلـي، لا يتـرك أي قضـية لنوابـه الثلاثة، هو شاب، عزب، لديه كثير من الوقت، وهي تـتقمص شخصـيته، تحسـب نفسـها المـدير، تحسـب نفسها السلحفاة التي تحمل على ظهرها العالم، كما كان أهل الصين يتخيلون، تقول: غرفتي هي القلب الـذي يضـخ الـدم مـن أقصـى المدينـة إلـى أقصـاها، حتـى إلـى الأريـاف، حتـى إلـى العاصـمة وسـائر المحافظـات، إذا لـم ألتـزم الدقـة، ولـم ألـزم بهـا كـل العـاملات عنـدي فـي المكتـب فسـد الـدم، وتوقـف القلب، وتعطلت الأطراف، أنت يا منى انتبهي إلى

وارد الأرياف، وأنت يا هيفاء احفظي صورة عن كل صادر، هذا بريد المدير العام الوارد، وهذا وارد المحافظات، وهذا وارد الوزارة، انتبهي إليه يا حسناء، وأنت يا نجوى المسؤولة عن الصادر، أربعة دفاتر، المدينة، والأرياف، والمحافظات، والوزارة، لابد أن تشكو لي في المساء تقصير لمى، سأرفع كتاباً إلى المدير أقترح نقلها إلى المستودع، ديوان الصادر والوارد هو القلب، كل شيء يصب عندي، كل شيء يصدر عني، وأنا وحدي المسؤولة، أنا رئيسة الديوان، لا يمكن أن يضيع شيء، حتى الكتب والرسائل السرية تفضها، وتحتفظ بصورة عنها قبل إرسالها، تخرجتُ قبلها في كلية الحقوق، ثم تزوجنا بعد سنتين، عينت هي في مديرية التربية، كان تعيينها فوراً رئيسة الديوان، أبوها ضابط طيار، لا يمكن أن يحلق بالطائرة إلا إذا كانت جاهزة مئة بالمئة، ولا يمكن أن يحلق هو أيضاً إلا إذا كان كذلك، ابنته أيضاً مثله، سرح قبل عشر سنوات، قبل أن يرفع إلى رتبة لواء، أنا عُيِّنْتُ في مديرية الصناعة، في قسم التوثيق، ثم نقلت إلى قسم التصديق، والدي بائع حر متجول، يدفع عربته في الشوارع والطرقات، يبيع يوماً الخيار ويوماً الباذنجان، وإذا عنَّ على باله ألا يعمل فلا يخرج من البيت، أقول لها: "أنت في الثالثة والخمسين، أهنئك، سيأتيك التقاعد بعد سنتين، أنا تقاعدي في الستين، مايزال أمامي خمس سنوات"، تقول لي: "يمكنك لتقاعد غداً إذا شئت، وفق طلبك، لا تنتظر، أعرفك

تكره الوظيفة، أنا لن أتقاعد، المدير لا يستغني عني، ولا الوزير، سيمدد لي حتى الستين، تقاعد أنت إذا شئت غداً، أنا لن أتقاعد، سأبقى في الوظيفة ما دمت على قيد الحياة، القوانين ستتغير"، هي دقيقة في كل شيء، حتى في المطبخ، كل شيء في مكانه، طوال عمرها لم تمرض، لا أعرف كيف التهبت عندها الزائدة الدودية هكذا فجأة، شفاك الله يا زوجتي الحبيبة، وأعادك إلى بيتك والأولاد بالسلامة، وإلى زوجك، لا غنى لي عنك بعد الآن، وأنا في هذا العمر، عنيدة أو مطيعة، مرتبة أو فوضوية، وأنا كذلك، بل أنا أسوأ، لا بد أن أعترف، لا غنى لبعضنا عن بعض، سامحيني أرجوك، لعن الله البصل، أنا لا أبكي، هذه دموع البصل، لاشك أن زميلاتك الآن في الديوان قد استهلكن أطناناً من البصل، قشرنها كلها في الديوان، ومسحن العيون بالكتب والرسائل، لم يسجلن أي كتاب، عودي إليهن.

*

أعود إلى المطبخ، هذا هو العالم الحقيقي، هنا الطعام قوت الحياة، أتفقد الأرز، لا بد من قليل من الماء، لا بد من السمن الساخن، أشم فيه رائحة المراعي، أرى قطعان الغنم تسرح، وأسمع صوت الشبابة يعزف عليها الراعي، أصب السمن الساخن وقد ماع فوق الأرز، نشيش وبخار وأشذاء، أحرك الأرز، ثم أغطيه، أنقر بالملعقة الخشبية على حافة القدر، لتسمع الجارات كلهن، أنا هنا في أطبخ، القدر أجمل بحيرات العالم، بجعات بيض تسبح فوق

سطحها الهادئ، الغابات تنفث أبخرتها السحرية، هنا أنا أحتضن العالم كله، لا بد من اللوز المحمص فوق الأرز، أنا أحب اللوز المحمص، زوجتي تعده بطريقة فنية عجيبة، أوه، ليس لها من فضل، الفضل للسمن، هاأنذا أضع اللوز المقشور في السمن الساخن، الساعة الرابعة والربع، حتماً سيصل الأولاد الآن، سأقلب الأرز في هذا الصحن الزجاجي الشبيه بزورق، يااللزورق الزجاجي المتألق وهو يسبح في محيط المائدة وسط القارات والجزر، لا بد من رش البهار الناعم فوق صحن الأرز، ولكن يا إلهي، ما هذه الرائحة؟ أوه، اللوز المقشور يحترق، ما حسبت أنه سيحترق بهذه السرعة، أرمي السمن واللوز المحترق في الحوض، الدخان يملأ فضاء المطبخ، فليمتلئ المطبخ بالدخان، وليحترق اللوز كله، لن يحاسبني أحد، كم كنت أحاسب زوجتي وألومها إذا حرقت الخبز وهي تحمصه، كم لامتها أمي وعنفتها، أنا هنا وحدي، أنا هنا الملك، نيرون أحرق روما، وأنا سأحرق اللوز والمطبخ كله، وسأحرق كل الوثائق والمديرية والديوان بكل مافيه من صادر ووارد، ما أفعله أنا هو الصحيح، مثلي هنا في المطبخ مثل المدير العام هناك، مثل مديري المباشر.

*

ها قد جاء الأولاد، راحت رائحة الحريق، ونحن حول المائدة، مجد يسألني: "أين اللوز المحمص؟ أمي كانت ترش دائماً اللوز المحمص فوق الأرز"، أقول له: "نسيته"، يتشمم بأنفه الرائحة، يغمز بعينه وهو

يشير إلى الحوض، شعب متمرد، لا يقر بالإنجازات، نسي المائدة العامرة أمامه، وتذكر اللوز المحمص، ولا يمكن أن تخدعه أو تكذب عليه، عهد نيرون ولّى، الحقائق تتكشف، أصبح لها لون ورائحة.

*

بعد الغداء أذهب أنا والأولاد إلى المستشفى، زوجتي تسألني: "ماذا فعلت اليوم؟".
ماذا يمكنني أن أفعل؟ كنت في أيام العطل أهرب إلى قراءة هوميروس ودانتي وشكسبير والمتنبي والمعري وابن خلدون، أتقنت الإنكليزية، وترجمت بعض القصص، نشرت عشر مقالات في صحيفة محلية، سخر مني زملائي في مديرية الصناعة، اتهمني مديري بالتقصير في العمل حين دخل فجأة فوجد على المكتب ديوان المتنبي، واليوم حرضت بركان القدر فثار، ذوبت بحيرات السمن فماع، شربت ماء البحر والمحيطات، أحرقت غلال اللوز، أطعمت خمسة مليارات من سكان العالم، المليار السادس هو أنت، كفاني المستشفى إطعامك، ابتكرت أنواعاً جديدة من الطعام، ماذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك، داخل المطبخ، أو خارجه.

*

أحدثها عن الأرز، تسألني: "وهل وضعت فوقه اللوز المحمص؟ تحميصه يحتاج إلى دقة وعناية"، مجد يتكلم: "بابا حرق اللوز ورماه في الحوض وملأ الشقة كلها برائحة الحريق"، لينا، ابنتي الوسطى تتكلم:"وحرق البصل، أحسسنا بطعم المرار، وسكتنا"،

أنظر إليها، أتكلم:"ولكن لا يمكن الإنكار، الطعام لذيذ، والأهم، المائدة كانت عامرة"، تلتفت زوجتي إليَّ وهي تقول: "سامحني، أتعبتك معي"، أقول لها: "بل أشكرك، عشت ثلاثة أيام استمتعت فيها بروائح الطعام، لا أجمل من البهار ولا أشهى من تقطيع اللحم، حتى الملح الذي كنت أتجنبه خوف ارتفاع الضغط أحببته، سوف أستقيل من عملي في مديرية الصناعة، حتى أقعد ليل نهار في المطبخ"، أهمس في سري:"ولكن اللوز وحده عكر مزاجي، لا يمكن للصفو أن يكتمل"، زوجتي تغالب الألم، تكاد تنهض من الفراش، تقول وهي شبه غاضبة: "أنا أعرف، أنت تكره الوظيفة، وتشتهي من زمان التقاعد، اترك أنت الوظيفة أو تقاعد، افعل ما تشاء، أنا لا أتخلى عن الوظيفة، سأظل أجمع بين المطبخ والوظيفة، واليوم سأخرج من المستشفى، وغداً سأداوم، سأقطع إجازتي المرضية، ولن أسمح لك بالدخول إلى المطبخ".

*

وأنا سأعود غداً إلى صورة طبق الأصل، انتهت إجازتي، انتهت حريتي.

مسألة صور...لا أكثر

. هل تعرف أي محرك للبحث غير غوغل؟
. هو أفضل محرك للبحث.
ـ ولكن ما وجدت فيه اسم أستاذي، الأستاذ نزار، وما وجدت له صورة.
ـ ولماذا البحث عن صورة لأستاذك، يا ولدي؟.
. لأنه أستاذ التاريخ، وأكبر ظالم في التاريخ.
. كيف تقول هذا عن أستاذك؟
ـ طلب منا البحث عن سِيَر الحكام الظالمين منذ فجر التاريخ، وعن صور لهم.
. هذا جيد.
. ولما قدمت له نتائج بحثي في كراس مطبوع مزق الصفحات الأخيرة.
. ولماذا؟
. لأني وضعت فيها سير أكثر حكام العالم في القرن العشرين وفي مطلع الألفية الثالثة.
ـ هذا جيد، وصحيح، لكن لا بد من وجود سبب آخر، لعل الصور غير ناحجة؟
. الحقيقة وضعت صور الحكام العرب، ولذلك سأضع صورته بينهم، هو ظالم مثلهم، لأنه مزق الصفحات التي فيها سيرهم وصورهم.
. كلهم؟

. نعم كلهم.
ـ لا ياولدي، أستاذك ماهو بظالم، وقد أحسن حين مزق الصور.
. والسبب؟
. هو خائف.
. وهل توافقه؟
. نعم.
. أنت خائف مثله.
. نعم.
ـ ولكن أنا لا أخاف، أنا سأضع كل صورهم، وصورة الأستاذ نزار، وسأقدم عملي إلى المدير، أنا لا أخاف.
ـ إياك أن تفعل، إيا ولدي، وإلا طردتك من البيت، وتبرأت منك.
. سأضع صورتك أيضاً.

كلية الطب ....هي الهدف

أقيمت الأفراح، دعا الأب الأسرة إلى عشاء في فندق فخم، في اليوم التالي دعا إخوته وزوجاتهم وأخواته وأزواجهن إلى المزرعة، وأقام لهم وليمة فاخرة، في اليوم الثالث دعا أشقاء زوجته وشقيقاتها مع الأزواج والزوجات والأبناء، وأقام لهم وليمة ليس لها مثيل، وأمام الجميع ناول ولده مفتاح سيارة مرسيدس، وأعلن أنها هدية له. ثم أقيمت عدة دعوات للأصدقاء والأقارب. وتقاطرت الهدايا من الأعمام والعمات والأخوال والخالات ومن الأقارب والأصدقاء.

فرح يبلغ حد الجنون، كيف لا وقد أعلنت نتائج امتحان الشهادة الثانوية، وكان ابنه "وائل" قد حصل على المجموع التام لعلامات الشهادة الثانوية، وهو سيدخل حتماً كلية الطب البشري، بل ستفتح أمامه أبوابها مرحبة، فالمجموع تام، ووالده أستاذ جامعي، وسيتم قبوله وفق المفاضلة الخاصة بأبناء أعضاء الهيئة التدريسية، ووالده طبيب جراح، وسيعمل معه فوراً في المستشفى الخاص به.

طوال السنوات الثلاث الماضية كان الهدف هو كلية الطب، "وائل" ولده الوحيد، بالإضافة

إلى خمس أخوات، منذ نيله شهادة الدراسة الإعدادية، قبل ثلاث سنوات، وهو يعده لنيل الشهادة الثانوية، لا، لا لم يتبع دورات خاصة، بل كان الأساتذة يأتون إلى بيته ليعطوه الدروس الخاصة، لكل مادة أستاذان، هذا يعطيه بطريقة، وذاك يعطيه بطريقة، الرياضيات والعلوم والفيزياء والكيمياء يدرسه إياها ثلاثة أساتذة، "كلية الطب البشري بانتظارك ياولدي"، "لا بد من كلية الطب"، " المشفى ينتظرك"، "ستعمل معي فيه فور دخولك الكلية، وبعد التخصص، هو لك، ترثه وتعمل فيه"، خصص الدور الثاني في الفيلا التي يسكنها لولده وائل، "هذا الدور كله لك وحدك"، لا ضيوف، لا أصدقاء، لا زوار، لا رحلات، هي صومعة للتعبد والدراسة، لا شيء في هذه الدنيا تجدر أن تهتم به سوى الطب.

ليس ثمة قلق، بل ثمة القليل منه، فالأسرة كلها مستنفرة تنتظر إعلان شروط القبول وإعلان موعد تقديم الطلبات، ولكن أياً كانت الشروط فالطريق إلى كلية الطب سالكة، بل مفتوحة، بل مفروشة بالورود.

وتم تقديم الأوراق إلى الجامعة، والاستمارات، وبات الانتظار مملاً، ثقيلاً، متى ستعلن النتائج؟، أمضت الأسرة أسبوع استجمام في المزرعة، لا بد من انتظار النتائج، القلق

يساور الجميع، كانت ستعلن يوم الأحد، ولكن أجلت ثلاثة أيام، قيل إن هناك تعديلاً في درجات القبول، قيل إن هناك أخطاء في الحاسوب، قيل إن قوانين جديدة سوف تصدر، هي أقوال وأقوال، قد لا تثير القلق وخاصة لمن كان مجموع علاماته تاماً لا ينقص درجة واحدة، ولمن كان أبوه من أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة.

وأعلنت النتائج، فوجئ الجميع، صدموا، روعوا، كارثة، هي بالنسبة إلى الأب كارثة، كاد ينال منه الشلل، أي خطأ هذا؟ لعله تشابه في الاسم، أو خطأ في الحاسوب، أو في الطباعة، لا شك في أن هناك سبباً ما غير مقنع، واتصل الأب بولده، فوراً بالهاتف، وقال له:"لا تقلق ياولدي، لا شك في أنه خطأ، أنا شخصياً سأسافر إلى العاصمة وأراجع الوزارة، ماهذه النتيجة غير المتوقعة أبداً أبداً، المهم، لا تقلق، ولا تفكر، أنا سأتصل فوراً بأعلى الجهات"، بهدوء أجابه الولد:"شكراً لك يا والدي، أرجو ألا تحرك ساكناً، وأرجو ألا تصاب بصدمة، وأن تتقبل الأمر بهدوء، أنا بنفسي عند ملء الاستمارة اخترت قسم اللغة العربية، أنا أحب الشعر".

في مركز التسوق

دخلت إلى جانبه في السيارة، وقبل أن يضع حزام الأمان أقلع بسرعة كبيرة.
قلت له وأنا أضع حزام الأمان:
. إلى أين؟
. عندما تصل ستعرف.
إلى أين يقود بهذه السرعة، ها نحن نغادر المدينة. اليوم نزل على بطاقة الاعتماد التعويض السنوي من الشركة، هذه أول مرة نتقاضى فيها مثل هذا التعويض، كاد يبلغ رواتب ثلاثة أشهر، ما وصلت التعويضات السنوية في الأعوام السابقة إلى ما يقارب راتب شهرين، طبعاً هو التضخم، وزيادة العوائد للشركة والأرباح، ولكن المبلغ حقيقة جيد، هل سيمضي بي صاحبي إلى خارج الريف في طريق مهجورة ثم يسلبني هناك بطاقة الاعتماد، وقد نزل عليها التعويض؟ هو يعرف الرقم السري لبطاقتي، وأنا أعرف الرقم السري لبطاقته، بين بطاقتي وبطاقته فرق في رقم واحد وحرفين اثنين فقط، أي جنون هذا؟ أسخر من نفسي؟ ما هذه الفكرة؟ هو صديق العمر، أكاد أقول ولدنا معاً، صداقة لا مثيل لها، ولا يمكن أن تتكرر، من الثانوية إلى الجامعة، نحن معاً، ثم ها قد مرت خمس عشرة سنة، ونحن في مكتب واحد، مهندسان في مركز واحد ومكتب واحد في قسم التصميم والمخططات، ونسكن معاً في عمارة واحدة،

شقتي بجوار شقته، وزوجتي أخت زوجته، مرت بنا حالات من الاختلاف، هذا أمر طبيعي، ولكن ما تحولت قط إلى خصام. ولكن، لماذا هذه السرعة الجنونية؟ لا أكاد أصدق، هل هو حلم؟!

. تكلم، أسمعني صوتك؟

. لا أعرف ماذا سأقول؟!

ـ تكلم على أي شيء، ولكن لا تسألني إلى أين سنذهب.

. هذا يعني ألا أتكلم.

ـ تكلم، سأعطيك مفتاح الكلام، سنذهب إلى مركز التسوق التجاري، وها قد وصلنا، فكِّر الآن بقائمة المشتريات، أو لاتفكِّر، كل شيء ستجده أمامك، ولكن سنتناول أولاً الغداء في المطعم الدوّار، هذه دعوة مني، ونتناول المرطبات، أيضاً، ثم نمضي بقية اليوم في التسوق، سأشتري المركز كله، لا أعرف ماذا سأفعل بالمبلغ الذي نزل اليوم في بطاقة الاعتماد.

طلب صديقي، وأكاد أقول شقيقي، كمية هائلة من اللحوم والخضروات والفواكه، فوجئت، لا أعرفه نهماً، أعرف جيداً أنه لا يأكل إلا القليل، سافرنا معاً، دُعينا معاً إلى ولائم كثيرة، حضرنا مناسبات كثيرة، كأنني أتعرف إليه اليوم أول مرة، هل يريد أن ينفق المكافأة كلها والتعويضات؟ مهما أنفق فلا يمكن أن ينفق المبلغ كله على الطعام، طلب كمية إضافية من اللحوم والمقبلات والخضروات والفاكهة، يخيل إلي أن الدهشة نالت من عامل المطعم، خُيِّل إليَّ أن

أصحاب الموائد المجاورة قد ذُهلوا من كميات الطعام التي ملأت المائدة، ولعلهم أشفقوا على أحدنا، فثمن الطعام الذي على المائدة لا شك كبير، وبخلاف عادته، أكل صاحبي كثيراً، أكل حتى كدت أقول له هذا يكفي، لكنه أكل كأنه لم يذق طعاماً منذ سنة، حين جاء عامل المطعم بورقة الحساب، ترك له أعطية كبيرة. عرضت عليه تأجيل المرطبات، لكي نقوم بجولة أو جولتين في أجنحة مركز التسوق التجاري، بعد أن ينال منا التعب يمكن أن نتناول المرطبات.

فور دخولنا إلى أول جناح، وهو جناح الألبسة الخاصة بالرجال، اشترى ثلاث بدلات، وخمس ربطات عنق فاخرة، ومعطفاً شتوياً، وثلاثة أحذية، عنده أربعة أولاده ذكور، أنا عندي ابنة وصبيان، أكد لي أنه يعرف المقاسات، اشترى لكل ولد ما يكفيه عامين، اشترى للصيف وللشتاء، دخل جناح الألبسة النسائية وهو يدفع عربته، اشترى لزوجته أربعة أحذية وحقيبتين لليد ومعطفاً غالياً جداً من الفرو، وخمسة فساتين، وقميصين حريريين، ما كنت أعرف فيه هذا الذوق، وهذا الكرم.

في جناح التحف والهدايا اشترى خمس لوحات جدارية صغيرة جميلة جداً، يتمِّم بعضُها بعضَها الآخر، يمكن وضعها متسلسلة في بهو منزله، وهي تمثل حدائق يابانية صغيرة، اشترى شمعداناً برونزياً تقليدياً يعود في نمطه إلى القرن السابع عشر، أعرف شقته تغص بالتحف والهدايا، ولكن لا أعرف فيه

مثل هذا الانفجار في حب التسوق دفعة واحدة، لا شك في أن الرجل يودِّع الدنيا، وأنه يظن نفسه سيموت غداً، فهو يريد أن يحصل على كل شيء، وأن ينفق كل شيء.

عربة التسوق، وهي من النوع الكبير، امتلأت إلى نصفها، عرضت عليه مساعدته في دفعها، فأنكر علي ذلك، وقال: "هل تريد أن تحرمني من متعة التسوق".

المكافأة التي نزلت في بطاقة الاعتماد والتعويضات كانت كبيرة، ولكننا لم نحصل عليها بسهولة، طوال العام كنا نكد ونعمل ونداوم أربع ساعات إضافية، بالإضافة إلى عملنا في يوم العطل، المكافأة والتعويضات من مستحقاتنا، ولا مبرر لتبذيرها في ليلة واحدة، لا أعرف هل يودع صاحبي الدنيا؟ هل يحس بدنوّ أجله؟ كأنه يريد أن ينفق الرصيد كله؟ أعرفه حق المعرفة معتدلاً في كل شيء، وصاحب عقل راجح، أكثر مني، أنا أندفع أحياناً، ولكنه أكثر مني ضبطاً لمواقفه، وهو رب أسرة، أب لأربعة أولاد، وأنا أب لثلاثة، وهذه بعض نقاط الاختلاف، وزوجته عاملة وزوجتي ربة بيت، وهما شقيقتان، أعرف زوجته تدقق معه في الحساب، تسأله عن راتبه، كم أنفق منه، وماذا بقي، أما أنا فلا تتدخل زوجتي في شيء، وأعرف أنه هو الذي يتسوَّق دائماً، وليست هذه أول مرة، فليس لدى زوجته اهتمام بالتسوق، بخلاف زوجتي التي تتولى بنفسها شراء كل شيء، وأنا أعتمد على ذوقها، وأترك لها الراتب كله

لتتصرف به كما تشاء، ولا أستبقي لنفسي غير أجرة المواصلات، وثمن كتاب بين حين وآخر، ربما كل شهرين أو ثلاثة مرة.
حين جر عربة التسوق قال لي:"ألا تريد أن تجر عربة؟"، قلت له: "لن أشتري أي شيء، زوجني تتكفل بكل شيء"، أضاف معلقاً: "ولكن إذا فكرت بشراء شيء فلن أسمح لك بوضعه في عربتي"، قلت له: "اطمئن، لن أشتري".
تناولنا المرطبات، ونحن نتأمل عربة التسوق، وقد ملأها إلى جوار الألبسة واللوحات والهدايا بالخضروات والفواكه والمعلبات، وأكياس الأرز والسكر والدقيق، ملأ العربة بكميات كبيرة من الأطعمة، تكاد لا تصدق، كأنه صاحب مطعم، يتزود لمطعمه بما يكفيه سنة، لا حظت أن بعض مَنْ في المركز كانوا يرمقون العربة بعين الدهشة، كأن الرجل يتوقَّع قيام الساعة أو حدوث كارثة أو قيام حرب وإغلاق الأسواق وحدوث مجاعة، المعلَّبات وحدها التي اشتراها يمكن أن تكفي أسرته عدة سنوات، لا أعرف كيف امتلأت عربة التسوق.
أبى إلا أن يدخل إلى جناح المفروشات والستائر والسجاجيد، شقته مفروشة بالسجاجيد من باب الشقة إلى الشرفات، حتى أرض المطبخ مغطاة بسجادة كبيرة من قطعة واحدة، اختار سجادتين فارسيتين قديمتين ثمنهما في الحقيقة باهظ، استهلك نصف المكافأة، قال لي من غير أن أسأله:

ـ زوجتي تلح علي منذ زمن، تريد شراء مثل هاتين السجادتين.
صاحبي ليس مريضاً بأي مرض جسدي، ولا نفسي، ولا يتوقع أن يموت غداً، وما هو بالفقير، فقد نشأ في أسرة غنية، لا أعرف في الحقيقة دافعه إلى هذا الجنون، ضخامة المبلغ وحدها لا تبرر هذا الاندفاع، يريد أن يحصل على كل شيء، عرضت عليه أن نستريح قليلاً قبل المغادرة في المقهى، ونحتسي الشاي، سرَّه العرض كثيراً، ولكن أصرَّ على أن يكون هو الداعي، طلب سيكاراً فاخراً وأخذ يدخن بشراهة عجيبة، أعرفه لا يدخن على الإطلاق، لا أكاد اصدق، أحياناً يبدو الواقع كالحلم، وأحياناً يبدو الحلم كالواقع، بل أجمل، هل أنا في حلم؟. عربة التسوق أمامنا مثل هرم، أعتقد أنها أصبحت محط أنظار الجالسين في المقهى، وأنها حركت خيال كل واحد فيهم.
التفتَ إلي فجأة وقال:
ـ انظر إلى تلك الدمية التي تبدو في واجهة المحل وراء العربة مباشرة .
قلت له:
ـ لباس البحر الذي ترتديه مثير جداً، أوافقك على شرائه.
قهقه ضاحكاً، ثم قال:
ـ لم أفكر في لباس البحر، فكرت في الدمية، أود شراءها ووضعها فوق عربة التسوق، أتخيلها مستلقية

فوق العربة، وأنا أدفعها في المركز التجاري، ولكن للأسف، هي للعرض، ليست للبيع.
أدركت أن الوقت قد حان لمغادرتنا المركز، سألت الدليل عن أقرب منفذ يقودنا إلى البوابة رقم سبعة حيث دخلنا، وحيث ركن صاحبي سيارته. قبل وصولنا إلى البوابة لمحت واجهة مكتبة، قلت لصاحبي:
. ما رأيك في الدخول إلى المكتبة؟
نظر إلى عربة التسوق، ثم قال:
. انظر، لا موضع فيها لأي كتاب، وعلى كل حال، والحقيقة: تعبت، أحس أني سأنام، ولا أستطيع التجول في المكتبة، وهي ليست مكتبة، هي جناح للكتب، وبعد ذلك نفد رصيدي.
الذي أدهشني أننا نتعامل هنا ببطاقة الاعتماد، ولكن كيف وصلت إلى أيدينا، هذه أول مرة نتعامل فيها ببطاقة الاعتماد، رواتبنا دائماً نقبضها من معتمد الرواتب، نحشرها في جيوبنا، ولا نخشى عليها السرقة، لأنها ليست كبيرة.
قلت له:
. هنا عند البوابة مقعد للاستراحة يمكنك أن تقعد، لن أبحث، سأسأل عن كتاب، لن أتأخر أكثر من خمس دقائق.
بعد ساعة، أو أكثر، خرجت من المكتبة، مرهقاً، أدفع أمامي بصعوبة عربة مملوءة بالكتب، بل الكتب يعلو فيها بعضه بعضه كالهرم، استنفدت فيها . وأنا لا أكاد أصدِّق . رصيدي كله.

وجدتُ صاحبي مستلقياً على طوله فوق االمقعد، أشفقتُ عليه، أسرعت إليه، حسبته نائماً، لم يكن نائماً، نهض، سألته:

. أين العربة؟

أجاب ببساطة، وهو يضحك:

. راحت.

. كيف راحت؟

ـ يبدو أني غفوت، انتبهت، فلم أجد العربة أمامي، سرقها أحدهم، خرج بها بكل هدوء.

ـ وماذا ستفعل؟ هيا نتصل بشرطة المركز، هناك كاميرات مزروعة في كل مكان.

ضحك، علَّق:

ـ لن أفعل أي شيء، أنا سعيد لأنها سرقت، أنا مللت، مللت، كل يوم شراء، كل يوم، أصبحت مجرَّد بطاقة اعتماد، أردت أن أشتري لهم ما يكفي سنة، والآن ارتحت، لا شراء، ولا بطاقة.

حدَّقت في عينيه، وجدت فيهما الفرح الحقيقي، فكرت لحظة، ثم قلت له:

. ليت أحداً يسرق عربتي.

ضحك، قهقه، علَّق:

. اتركها، عربتك لا يسرقها أحد.

. سأتركها، ولن أرجع بعد اليوم إلى مركز التسوق.

غادرنا مركز التسوق، انطلق بالسيارة، ثم فجأة رفع يديه عن المقود، لوح بهما في فضاء السيارة، ثم ضاعف من السرعة، وهو يصيح:

. أهنئك، قرار حكيم، أنت تركت العربة بإرادتك، أنت أكثر جرأة مني، هذه هي الحرية.

*

أستيقظ على رنين الهاتف إلى جوار سريري، أرفع السماعة، وأنا في الفراش، وإذا هو صاحبي، يسألني:

. كيف نمت الليلة الماضية؟

ـ نمت بثيابي، من غير عشاء، حتى إنني ما استحممت، التعب هدَّني، زوجتي شغلت عني بترتيب المؤونة في خزائن المطبخ.

. وأنا مثلك، لولا أني خلعت حذائي وراء الباب، لكنت نمت بالحذاء، زوجتي تركتني ونامت عند الأولاد، شغلت كما قلت مثل زوجتك بالمؤونة، غرقت في المطبخ، مثل أختها، وتركتني، يبدو أنها أشفقت عليَّ، لاحظت تعبي، فتركتني أنام وحدي.

. سائق التكسي كان أذكى منا.

ـ ما غاظني إلا هو، وقف يتفرج علينا ونحن ننزل الأكياس من صندوق السيارة، وأخذ يسخر منا، قال: لو اشتريتم هذه المواد التموينية من السوق المجاورة لكنتم وفرتم أجرة التكسي، الفرق بين أسعار المركز التجاري وأسعار السوق بسيط، فرق وهمي.

ـ كلامه صحيح، لا يمكن شراء شيء من المركز التجاري غير الأطعمة والمواد التموينية، ذهبنا إلى الفرجة، ولم يبق فينا قوة، هلكنا من الفرجة والتجوال، وطار الراتب كله، وما بقي معنا غير أجرة التكسي.

ـ فوق هذا، زاد قهرنا، رأينا أشياء جميلة، لا يمكن شراؤها، كلها أجنبية مستوردة، وأسعارها نار، أنا

رأيت بدلة مناسبة لي، ولكن ما قدرت حتى على التفكير في شرائها.
ـ ليتنا تناولنا في المركز فنجان قهوة على الأقل، التعب هدَّنا.
ـ أنا دعوتك إلى العشاء، وأنت اعتذرت، قلت جئنا للفرجة، لا للأكل.
. وأنت حرمتني حتى من السؤال عن كتاب كنت أحلم بشرائه.
. الشهر القادم إذا قبضنا المكافأة السنوية وتعويضات العمل الإضافي سأدعوك إلى العشاء في المطعم الدوار، سأشتري لنفسي عشر بدلات، لا بدلة واحدة، وسأشتري لك الكتاب الذي كنت تحلم به، بالله عليك، قل لي ما هو؟
. المختصر في تاريخ البشر.
ـ سأشتري لك ألف كتاب، سأملأ لك عربة التسوق بالكتب.
أقول له:
ـ وسيكون عندك سيارة، وسنذهب بها إلى السوق وبها نرجع، وتقود أنت بسرعة.
يعلق:
. لأ، هذا أكثر مما أحلم به، طوال عمري ما تمنيت سيارة، ولا حلمت بها.

*

لا يعرف أنني حققت بالحلم كل ما تمنيته أنا وكل ما تمناه هو، بل أكثر.
كان الحلم أجمل.

المحتوى

١.	إليك		٢
٢.	أبو معتز والكناريات		٤
٣.	لا يسمح لأحد أن يعكر مزاجه		٢٦
٤.	حرمنا من بهجة العيد		٣٨
٥.	سقوط مع الموسيقا		٥٢
٦.	عينان وحناجر		٥٥
٧.	ماذا أختار؟		٦١
٨.	طهر		٦٦
٩.	الرائحة الكريهة		٧٧
١٠	القميص الأصفر والسترة		٨٣
١١	المسافر الثالث		٩٠
١٢	حرية لثلاثة أيام		١٠٧
١٣	مسألة صور لا أكثر		١٢١
١٤	كلية الطب هي الهدف		١٢٣
١٥	في مركز التسوق		١٢٦